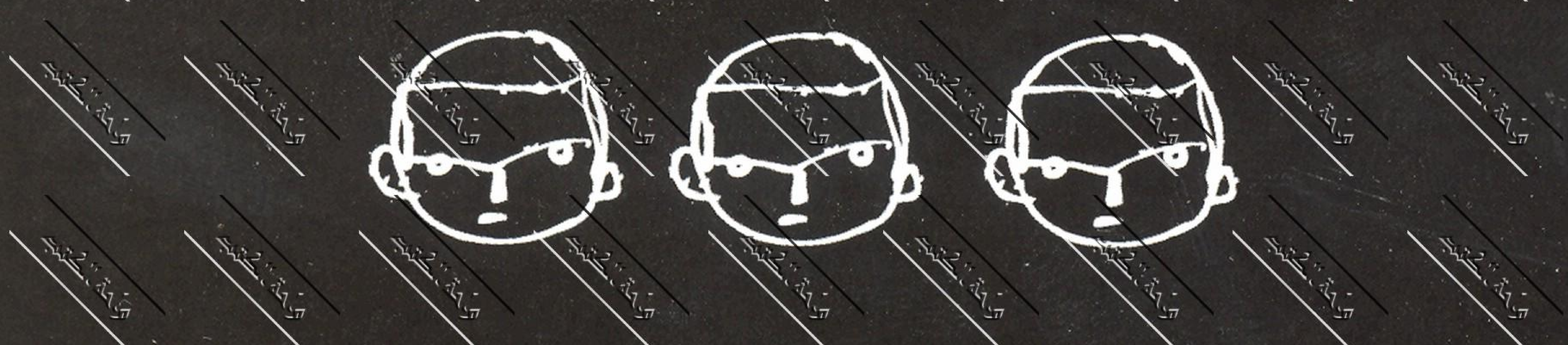

425
محمد المنسي قنديل
ثلاث حكايات عن الغضب
A.M.
دار الشروق
http://wahetelkotob.com



في بلد يمتد تاريخه لأكثر من سبعة آلاف عامٍ، تكثر الأحداث المهمة لدرجة أن يهمل أهل الحدث تأريخ ما حصل. و في بلد لطالما عاش تحت مظلة حكم الفرد، استحقت ثورة المصريين في الخامس والعشرين من يناير لإنهاء عهود الفرعنة أن يُفتح لها باب التاريخ على مصراعيه، في أيام كان فيها الغضب من أوضح ما يكون.


في ثلاث قصص قصيرة، ينسج الروائي الكبير محمد المنسي قنديل خيطًا للثورة بطريقة مبتكرة، يبدأ الثورة بآلة طباعة عتيقة لم تعمل منذ ثورة ١٩١٩، يقص مجد الثائرين المتمردين على خوفهم من خلال مضرب تنس يرفض أن يهدأ أو يتراجع أمام ضربات الأمن، ثم ينهيها بقصة سبورة تطرح علمًا، لا يغير فقط الماضي بوعدٍ لمستقبل خيرٍ منه، و لكنه أيضًا يزيل الكثير من الاختلافات بين ناس ما ظنوا يومًا أن يتقابلوا.

ثلاث قصص قصيرة تغادر أجواؤها الميدان و تعتصم فيه، أبطالها من الصغار و الكبار على حد سواء؛ ثلاث قصص يمجدن بعض أطهر اللحظات التي مرت بها مصر عبر تاريخها، فهي ثلاث قصص عن الغضب.

Sat.
19/4/2014



دار الشروق
www.shorouk.com


مجدي كامل
كتابنا القادم
رؤوس الشر العشرة
مشعلو الحرائق وتجار الدماء والقتل عن بعد
مهندسو المخطط الصهيوأمريكي لتفتيت
العالم وإشعال الثورات وبث الفتن
1980
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

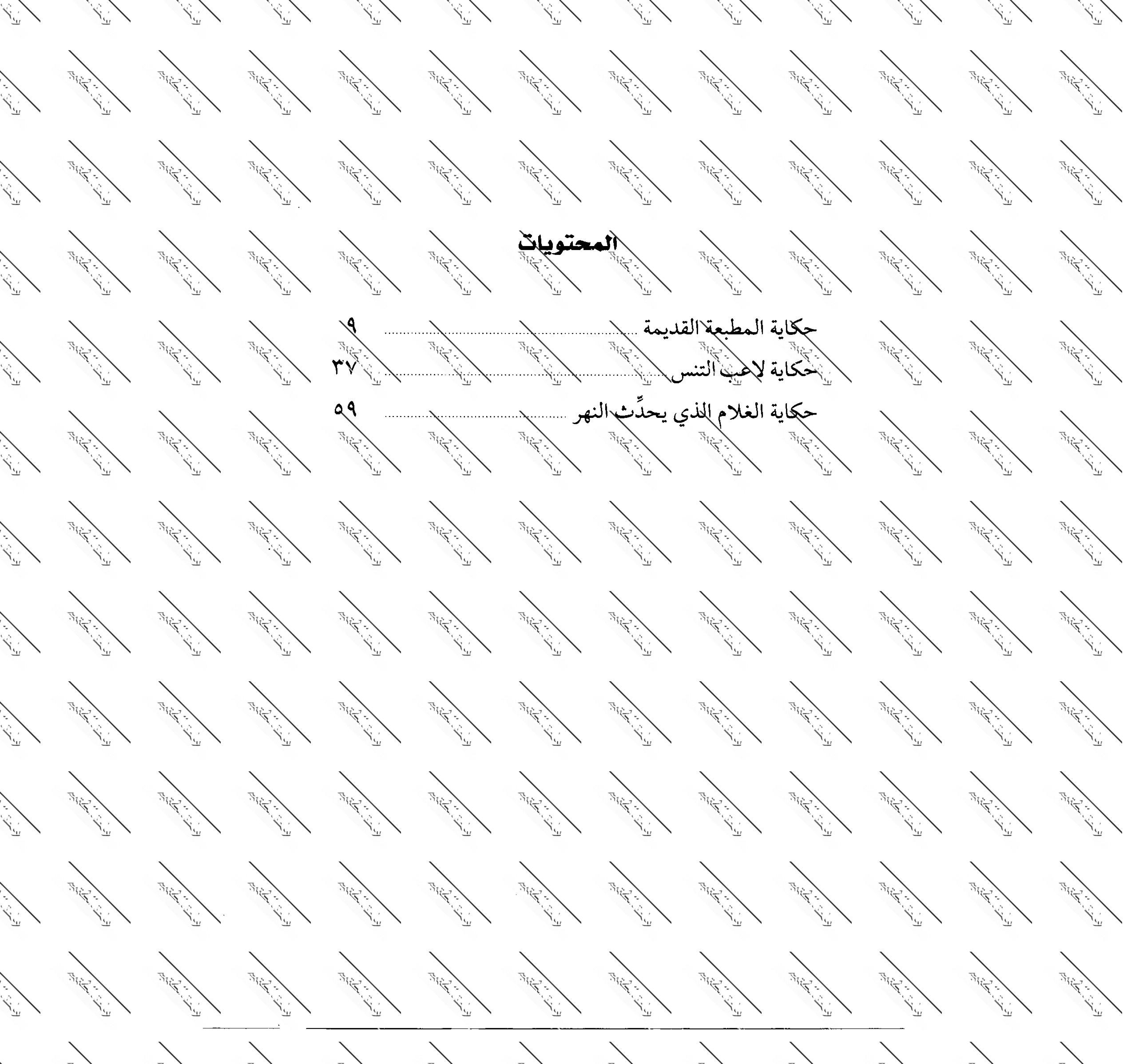


محمد المنسي قنديل

ثلاث حكايات عن الغضب

(قصص للفتيان والفتيات)

دار الشروق

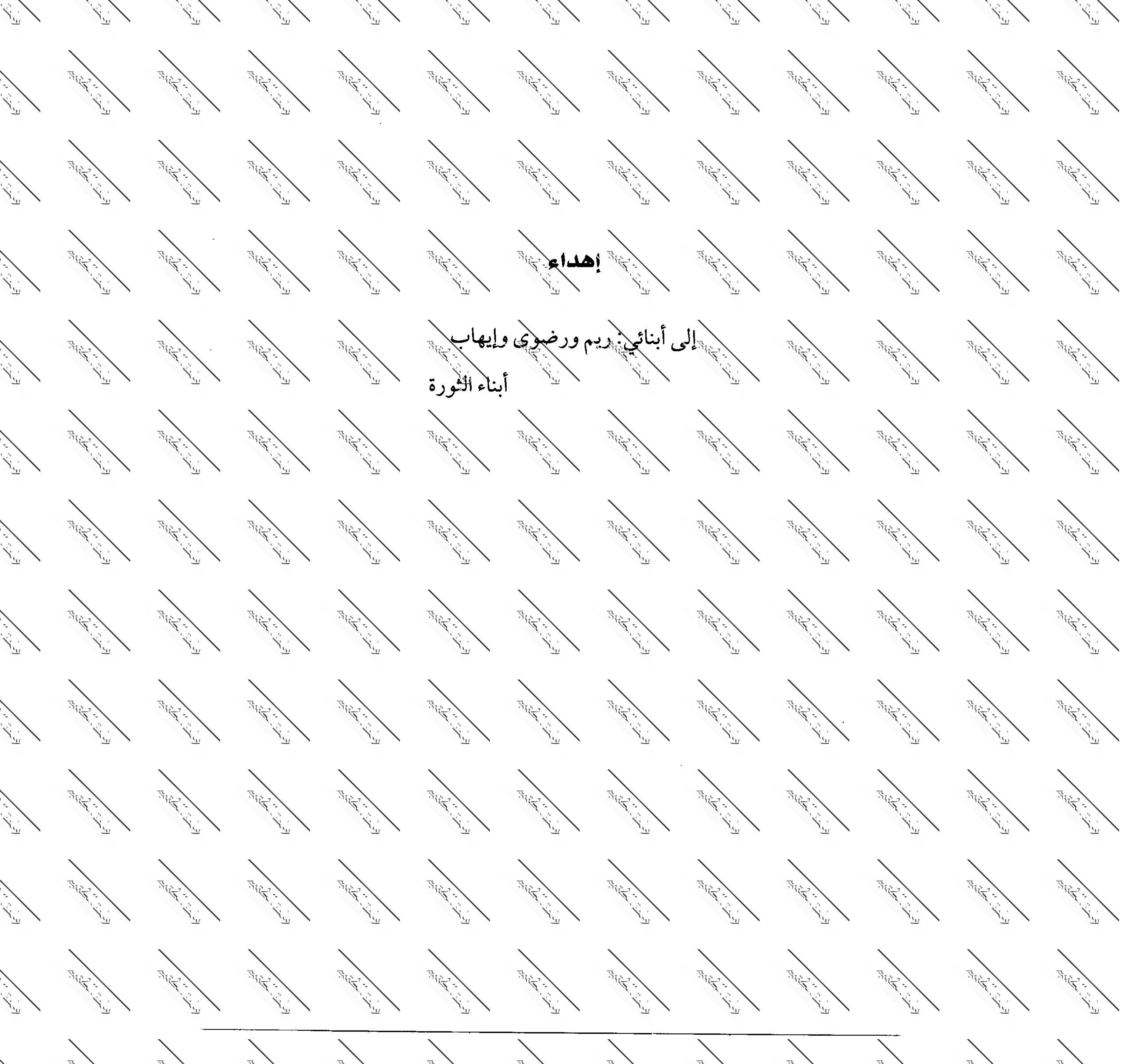


المحتويات

حكاية المطبعة القديمة ٩

حكاية لاعب التنس ٣٧

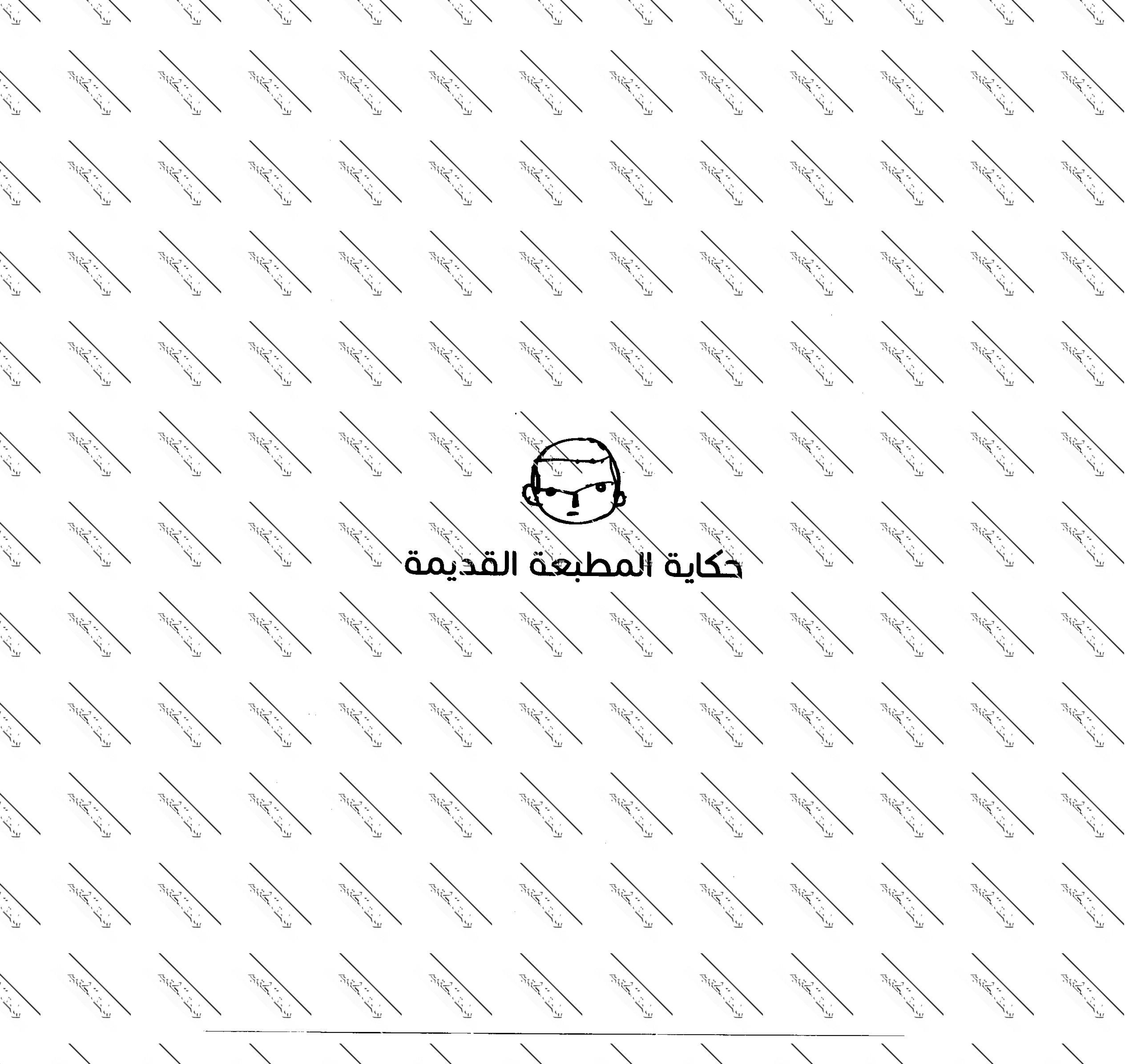
حكاية الغلام الذي يحدِّث النهر ٥٩



إهداء

إلى أبنائي: ريم ورضوى وإيهاب

أبناء الثورة



حكاية المطبعة القديمة

«شاي يا «فلفل» .. قهوة يا «فلفل» .. حاجة ساقعة يا..»

الجميع ينادونه ويطلبون منه، ولكن لا أحد يراه، كأن من يقوم بخدمتهم هو مجرد شبح، ولكنه يراهم جميعا، ويحفظ ملامح وجوههم. كان يقف في ركن المقهى، يراقب الأستاذ «نجيب محفوظ» وهو يجلس في مكانه المعتاد،مثل يوم جمعة، تلتف حوله مجموعة من شباب أصغر سنا، كتاب قصة وشعراء ورسامون ومخرجو سينما، بعض الوجوه ثابتة، تأتي في نفس الموعد كل أسبوع؛ لذلك فهي مضمونة عند دفع الحساب، ووجوه أخرى تتغير، عليه أن يأخذ باله منها؛ لأنها يمكن أن تنصرف دون أن تدفع شيئا، والأستاذ ينظر إلى الجميع وعلى وجهه ابتسامة لا تغيب، وأحيانا يضع يده على إحدى أذنيه ليستمع إليهم باهتمام.

يسمع «فلفل» بعضا من الأحاديث التي يتبادلونها، ولكنه لا يستطيع التوقف، فهو يروح ويغدو حاملا الطلبات، قصص وقصائد ومشاريع أفلام، المهم أنه يعرف الموعد المحدد الذي يشرب

فيه «الأستاذ» فنجان القهوة الأول، وبعدها بساعة بالضبط يشرب الفنجان الثاني، وفي الساعة الثامنة تماما ينهض منصرفا، في تلك اللحظة ينقض «فلفل» على الزبائن ليطالبهم بدفع الحساب، ولكن.. بعد أن يخلو المقهى ويتبدد الكلام ولا يكون هناك سوى الصمت، يستند «فلفل» إلى الحائط ويفكر في أمنيته الوحيدة، أن يكون واحدا من الذين يجلسون حول الأستاذ، يتكلم ويستمع ويناقش، ثم تأتي عليه لحظة سحرية. يمد فيها «فلفل» يده إلى جيبه ويخرج ورقة ويقرأ ما فيها من كلمات، ساعتها يصمت الجميع، وينصتون له بانتباه، ويهز «الأستاذ» رأسه في إعجاب.. معجزة صغيرة..ولكن هل يمكن أن يحدث هذا؟!

وفي منتصف الليل .. بعد أن يغلق المقهى أبوابه، يسير «فلفل» في شوارع شبه خالية، يرى المصابيح مثل فصوص البرتقال، تحيط بها دوائر من نقاط مضيئة، والناس يتحدثون في خفوت، يسأل نفسه: ماذا يمكن أن يكتب؟ كيف يلفت نظر الأستاذ والذين يحيطون به إلى وجوده؟ كيف يقنعهم أنه ليس مجرد جرسون؟

يصل إلى منزله والجميع نائمون، ابنه «سعد»هو الوحيد المستيقظ، يحب «فلفل» منظره وهو يذاكر؛ لأن هذا سيجعله شابا متعلما معه شهادة، على الأقل لن يعمل جرسونا مثله؛ تلك المهنة المتعبة التي لا يحترمها أحد، جلس أمامه وهو يقول له:

ـ هل لديك كراسة خالية وقلم؟

نظر إليه «سعد» مندهشا وهو يقول له:

لماذا؟ هل تنوي المذاكرة؟

قال «فلفل»:

أريد أن أكتب.. ولكني لا أعرف حقا ماذا يمكن أن أكتب؟

قال «سعد»: أنت تقول إن المقهى مليء بالكُتاب، لماذا لا تسأل واحدا منهم؟ لماذا لا تسأل الأستاذ «نجيب محفوظ» نفسه؟

أخذ «فلفل» الكراسة الخالية والقلم ونهض منصرفا وهو يقول:

ـ ليت الأمر بهذه السهولة يا بني.

قضى الليلة كلها دون نوم، يحاول أن يقنع نفسه أنه مجرد «جرسون»، وسوف يظل كذلك، وحتى لو أمسك القلم، فستتوقف يده، ولن يكتب حرفا واحدا.

في الصباح وصل إلى المقهى متعبا، ارتدى عباءة العمل، كان لونها أزرق، اسم مقهى «ريش» مطرز عليها بخيوط ذهبية، تجول بين الموائد الخالية ليتأكد من نظافتها، في الصباح لا يأتي إلا القليل من الزبائن، في ركن المقهى يجلس «ماسح الأحذية» في انتظار ذوي الأحذية المتسخة، كان رجلا عجوزا، وهذه هي المرة الأولى التي يراه فيها «فلفل»، كان «ماسح الأحذية» الذي سبقه قد مات، لابد أن هذا الرجل واحد من أقاربه، يجلس صامتا كشيخ حكيم، لا يدق على الصندوق لينبه الزبائن لوجوده كما كان يفعل الذي سبقه.. كان أهدأ وربما أفضل.

ثم بدأت بعض الحوادث الغريبة تتوالى.

كانت بدايتها عندما شاهد تصرفات «ماسح الأحذية»؛ فهو يجلس هادئا طوال الوقت، لا يبدو متلهفا على العمل، يتأمل زبائن المقهى في تمعن،ثم ينهض فجأة ويذهب للزبون الذي وقع عليه اختياره، وهذا ما فعله مع الزبون الأول.

كان زبونا ضخم الحجم، وجهه مغطى بالعرق، وأسرع «فلفل» ليحضر له أبرد كوب ماء في المقهى، وعندما عاد إليه وجد «ماسح الأحذية» عند قدميه، يصبغ حذاءه في استغراق، يمر عليه بالممسحة أكثر من مرة حتى يتألق ويصبح لامعا كالمرآة،كان بارعا في عمله، ولكنه توقف وأخذ ينظر إلى مقدمة الحذاء طويلا، ثم رفع رأسه فجأة للزبون قائلا:

ـ يجب أن تغير عملك.. تنتظرك أمور سيئة.. بعض رؤسائك غير راضين عن عملك.. الأفضل أن تبادرهم أنت بالتغير قبل أن يقوموا هم بتغييرك.

وقبل أن ينطق الرجل بكلمة، نهض «ماسح الأحذية» وانصرف عائدا لمكانه، ظل الزبون البدين جالسا، عاجزا عن تناول مشروبه، لابد أنه كان يقلب تفاصيل حياته في ذهنه، يحاول أن يعرف ماهي الأخطاء التي وقع فيها، يفكر أيضا في هذا الرجل الغريب.. هل هو مجرد ماسح للأحذية، أم قارئ للمستقبل؟

ظل «فلفل» يتابع «ماسح الأحذية» في دهشة، كان قد جلس في هدوء كأنه لم يفعل شيئا، وانتظر «فلفل» ليرى ماذا سيفعل

بعد ذلك؟ كانت الزبونة الثانية سيدة، لا يبدو عليها أنها تريد أن تمسح حذاءها حقا، ولكن «ماسح الأحذية» نهض وجلس أمامها في صمت، نظرت إليه لفترة ثم مدت ساقها نحوه في تردد، خلع الحذاء من قدميها ببساطة وأخذ في تنظيفه، لم يكن سطحه اللامع إلا قطعة صغيرة من الجلد على شكل مثلث، رفع وجهه نحوها وقال في تأكيد:

ـ الولد الذي تتمنين ولادته سوف يجيء.

شهقت المرأة، نظرت إليه وهي تهتف: كيف عرفت؟

قال: سيكون ولدا جميلا.. سيقف في ميدان التحرير قريبا من هنا، وسيصيح بأعلى صوته.

امتلأت عينا المرأة فجأة بالدموع:

ـ إن كان سيجيء حقا.. فلماذا سيقف، ولماذا سيصيح؟

قال: لأنه سيكون ولدا محبا للحرية.

جمع أدواته وعاد للركن الذي تعود على الجلوس فيه، وانصرفت المرأة وهي لا تستطيع أن تغالب دموعها، ولكنها كانت سعيدة.

ثم حدث الأغرب، شاهد «فلفل» الأستاذ «نجيب محفوظ» داخلا إلى المقهى بخطوات هادئة، كان كعادته يتسرب بخفة، لا يريد أن يلفت الأنظار إليه، رفع يده محييا «فلفل» وهو يخفض رأسه، ويربت بيده على صدره، كم كان يحب هذه الحركة التي

تدل على تواضعه، جلس على منضدته المعتادة، وعلى وجهه الابتسامة الواسعة التي نادرا ما تفارقه، ابتسامة ودودة، لا تقيم حاجزا بينه وبين الآخرين، لابد أنه ينتظر أحدا، أسرع «فلفل» وأمر بإعداد القهوة الخاصة به، على «الريحة» لا توجد فيها ذرة من السكر، ثم حملها إليه، وجد «ماسح الأحذية» قد سبقه وجلس أمامه بالفعل، كان منهمكا في تلميع حذائه، وكان بارعا كعادته، فحذاء الأستاذ كان لامعا مثل مرآة مصقولة، أحس «فلفل» أن اللحظة التي انتظرها طويلا قد حانت أخيرا، قال هامسا وهو يضع القهوة أمام الأستاذ:

- اعذرني يا أستاذ .. عندي سؤال.. مجرد سؤال.

رفع الأستاذ رأسه دون أن تغادره الابتسامة، واصل «فلفل» وهو يبلع ريقه:

- أريد أن أعرف كيف أكتب؟

ضحك «نجيب محفوظ» قائلا:

- ياله من سؤال صعب يا «فلفل»، هل تعتقد أنني أعرف إجابته؟

- بالطبع يا أستاذ.. أنت أكبر كاتب في مصر، لابد أنك تعرف الإجابة.

رشف «محفوظ» قليلا من فنجان القهوة، فكر قليلا ثم قال في جدية:

ـ ربما لأنني لم أسال نفسي هذا السؤال، فأنا أكتب كما آكل وكما أشرب أو أنام أو أصحو، الكتابة هي أحد أفعال الحياة بالنسبة إليَّ.

كان يتكلم برقة ولطف، وماسح الأحذية يواصل التلميع، لكن الإجابة لم تكن مرضية، عاد «فلفل» يقول في إلحاح:

ـ على الأقل قل لي: عن أي شيء أكتب؟

ضحك الأستاذ وهو يقول:

ـ هذا السؤال أسهل قليلا..اكتب عن كل الأشياء التي تراها عيناك. أما التي لا تراها فاكتب عما تحسه نحوها، ولكي تكتب يا «فلفل» يجب أن ترى بعمق وتسمع برهافة وتحس بصدق، هل كلماتي مفهومة؟

تمتم «فلفل» بكلمات الشكر وهو يتراجع، ظل واقفا بالقرب منه، كانت هذه فرصة نادرة لتأمله في هدوء؛ لا يوجد زحام، ولا يوجد من يحيط به، أصبح الحذاء لامعا بدرجة لم ير «فلفل» مثلها من قبل. ولكن «ماسح الأحذية» ظل جالسا في مكانه، يطيل النظر في حذاء الأستاذ كأنه يبحث عن شيء ما. نظر إليه «نجيب محفوظ» مازحا وهو يقول:

ـ ماذا؟ هل ترى شيئا في الحذاء؟

ولدهشة «فلفل» سمع «ماسح الأحذية» وهو يرد:

ـ أجل يا أستاذ.. أشياء كثيرة وخطيرة.

ضحك «نجيب محفوظ»:

ـ لقد سمعت عن الذين يقرءون الكف، أو الفنجان، ولكن هذه أول مرة أرى فيها من يقرأ الحذاء..ماذا ترى؟

قال «ماسح الأحذية»:

ـ أشياء كثيرة كنت تحلم بها سوف تتحقق.

ـ عاد الأستاذ يضحك:

ـ قديمة.. كنت أحلم بجائزة نوبل وحصلت عليها بالفعل..

قال الرجل:

ـ هناك ما هو أخطر.. البلد كلها ستنقلب.. ستتغير.. الفتوات الأقوياء سيهزمون.. والحرافيش الضعفاء سينتصرون.. النائمون يستيقظون.. والمظلومون يصرخون.. والجلادون يهربون.

كان الرجل يتحدث كالمنوم، كأن الكلمات تأتيه من عالم آخر، وشعر «فلفل» بالرهبة من نبرات صوته وطريقته في الكلام، ظل الأستاذ جامدا وقد اختفت ابتسامته، ثم قال بجدية:

ـ متى سيأتي هذا اليوم؟

قال الرجل: ليس ببعيد يا أستاذ.. ليس ببعيد.

بدأ يجمع علب الورنيش وزجاجات الصبغة، أنزل الأستاذ قدمه من فوق الصندوق، وأخرج من جيبه ورقة مالية قدمها له، ولكن

«ماسح الأحذية» هز رأسه رافضا، حمل صندوقه وجلس في الركن، ونظر «فلفل» إلى الأستاذ فوجده مذهولا، وأخيرا نهض واقفا، قدم الورقة المالية لفلفل قائلا:

ـ أقنعه بقبول النقود.

وأومأ «فلفل» برأسه، وسار الأستاذ مبتعدا عن المقهى. أخذ «فلفل» يتأمل الرجل وقد عاد إلى جلسته الصامتة، قال لنفسه: سأكتب عنه، إنه رجل غريب حقا،يرى مالا يراه الآخرون، سأراقب ما يفعل، وأسمع ما يقول، وسأحاول أن أشعر بما يحس. وراقب «فلفل» كل ما حدث، أخذ يعيد التفاصيل في ذهنه ويكررها حتى يحين وقت الكتابة.

لم تتوقف الحوادث الغريبة.

بدأت الطيور تظهر حول المقهى، جاء سرب منها في منتصف النهار، وكانت معظم مناضد المقهى خالية، لا يوجد عليها إلا بقع مستديرة من ضوء الشمس، مثل قطع نقود براقة، وكان صاحب المقهى نائما في مقعده، كانت هذه ساعة القيلولة اليومية التي تعودها. هبطت طيور صغيرة ملونة على المناضد، تلفتت حولها بعيون صغيرة براقة، تقاربت رءوسها كأنها تتهامس، ربما تقول لبعضها: إن هذا هو المكان الأفضل، فقد استقرت وكفت عن الحركة، تنتظر شيئا ما. فكر «فلفل» أن يطردها بعيدا، ولكنه دهش من أحجامها الصغيرة وتنوع ألوان ريشها، كان باهت الزرقة كموج

النهر وأحمر كضوء الشفق ورماديا كلحظة بزوغ الفجر، تساءل «فلفل»: ما الذي جاء بها هنا؟ لماذا اختارت هذا المقهى؟ لاحظ أنها لم تترك أي أثر للفضلات على المناضد التي تقف عليها، أين تعلمت النظافة وهذا السلوك الحسن؟

وفجأة أدرك «فلفل» لماذا حضرت إليه. أسرع إلى داخل المقهى، أحضر وعاء ملئوه بالماء، وفتت رغيفا من الخبز إلى قطع صغيرة، وعندما اقترب من الطيور ابتعدت عنه قليلا، امتلأ المكان بحفيف أجنحتها، ولكنها عندما شاهدت فتات الخبز والماء عادت. وعلى الفور بدأت تلتقط الفتات بمناقيرها، ثم تغمسها في الماء، تنفض جسمها كله كأنها تدخل فيه الطعام، وبعد قليل بدأت تزقزق فجأة، أصبحت أصواتها فرحة وجذلة، ملأت صمت المقهى بنوع من البهجة، استيقظ صاحب المقهى مذعورا، انتفضت كرشه الضخمة وهو يهتف:

ـ ما هذه العصافير؟ اطردها من هنا فورا.

قال «فلفل»: لماذا؟ إنها لا تحدث ضررا.

قال صاحب المقهى: هذا المقهى للزبائن وليس للطيور، يجب أن تطردها حالا.

تقدم «فلفل» حزينا، كان لابد من طردها، فسيأتي الزبائن بعد قليل، ولابد أن يجدوا المكان خاليا ونظيفا. صفق بيده، أطاعته الطيور على الفور، حركت أجنحتها وارتفعت إلى أعلى، كونت

سربا على شكل رأس سهم، ودارت نصف دورة أمام المقهى ثم غادرت المكان. تنهد صاحب المقهى في ارتياح وحاول أن يعاود النوم من جديد.

في اليوم التالي عادت الطيور في نفس الميعاد، ولكن بأعداد أكبر وألوان أكثر تنوعا، وكان «فلفل» قد جمع كل بقايا الخبز التي تركها الزبائن في كيس من «البلاستيك» وأخفاه عن الجميع، وكان ينتهز أي فرصة يخلو فيها من العمل ليقطعها إلى فتافيت صغيرة. وعندما جاءت الطيور كان مستعدا؛ وضع أمامها الطعام والماء على الفور، وأشار لها بطرف أصابعه أن تظل صامتة، ولكن هيهات، ما إن فرغت من الطعام حتى بدأت في الزقزقة من جديد، بصوت أجمل وأقوى، وعندما استيقظ صاحب المقهى مذعورا، صفق «فلفل» بيده فهزت أجنحتها وطارت جميعا، أصبحت أكثر من سرب، ظلت تدور أمام المقهى وفوق رءوس المارة، توقفوا وهم يتأملونها في دهشة.

لم ينطق صاحب المقهى بكلمة واحدة، لكنه ظل يفرك عينيه كأنه يحاول التأكد من أنه لا يحلم. ظلت تدور لفترة من الوقت، ثم بدأت تهبط وتحط على المباني المحيطة بالمقهى، نامت على حواف النوافذ وعلى أسوار الأسطح وعلى أفاريز الواجهات، أخذت أعدادها في التزايد، وفي اليوم الثالث لم يستطع صاحب المقهى النوم، ظل يراقب العصافير وهي تأتي وتحتل كل المناضد،

ولم يعترض حين رأى «فلفل» وهو يقدم لها فتات الخبز والماء. ظل يتابعها وهي ترفرف بأجنحتها الصغيرة الدقيقة، وتحتل واجهات المباني، بل إنها ذهبت ونامت على تمثال طلعت حرب الموجود في الميدان الصغير الملاصق للمقهى، وقفت فوق طربوشه الصغير وعلى كتفيه، وحول قدميه، كان المارة يتأملون هذه الهجرة الجماعية مندهشين.

تساءل صاحب المقهى في حيرة:

ـ ماذا يحدث يا «فلفل»؟ من أين جاءت، ولماذا ترفض الرحيل؟

نهض «ماسح الأحذية» من مكانه، أشار إليها وهو يقول:

ـ إنها «عصافير النيل»، لقد هجرت النهر ولا تريد العودة إليه، إنها جائعة وعطشى.

قال صاحب المقهى: كيف تصل إلى هذه الحالة وهي تحلق على النهر طوال اليوم؟

لم يكن هناك جواب، كانت هناك آلاف من العيون البراقة الصغيرة تحيط بالميدان ولا تقدم جوابا لأحد.

ثم جاء الشاب.

في البداية لم ير «فلفل» ملامحه بوضوح، كان يعدو قادما من صوب ميدان التحرير، يحاول أن يخترق طريقه وسط الرصيف المزدحم، يصطدم بالمارة، لا وقت عنده للتوقف والاعتذار،

وأخذت الطيور تراقبه بعيونها المستديرة دون أن تتحرك من مكانها. كان يلهث، وسمع «فلفل» صوت لهاثه وهو يقف عند الباب يتأمله وهو قادم نحوه، لم يكن صاحب المقهى موجودا، وهذه من المرات النادرة، توقف الشاب أمامه وهو يقول:

ـ أرجوك خبئني.. رجال «أمن الدولة» يطاردونني.

نظر إليه «فلفل» وهو فاغر الفم، لا وقت للدهشة. دخل الشاب إلى المقهى بسرعة، أخذ يبحث عن ركن ينزوي فيه، أو مائدة يهبط تحتها، وحاول فلفل أن يتخلص من إحساس الفزع الذي غمر جسده، كان اسم هذا الجهاز وحده مثيرا للرعب، وكان رجاله معروفين بالشراسة والقسوة، وهذا الشاب النحيل يبدو واحدا من الطلبة، لو أمسكوا به فسوف يطحنون جسده، دخل خلفه مسرعا، أشار للشاب الذي كان يحاول الاختباء خلف حاجز إعداد المشروبات:

ـ هذا لا يصلح.. تعالَ معي.

جذب الشاب من يده وأسرعا معا إلى مؤخرة المقهى، كان هناك مدخل صغير مخفي خلف ستارة ثقيلة يؤدي إلى المخزن، هبطا الدرج بسرعة، وأغلق «فلفل» الباب خلفه، ربضا معا في العتمة. كانت رائحة المخزن عطنة بعض الشيء، ولكنهما كتما أنفاسهما، سمعا صوت أقدام غليظة تدب في الأعلى،و أصواتا تسأل في خشونة، يرد عليها صوت واحد من زملائه في المقهى، هل لمحهما

أحد؟ ارتفع الصوت الخشن مهددا، وهذه المرة لم يرد أحد عليه، بدأت الأقدام الغليظة تبتعد، عاد السكون للمقهى، وتحرك «فلفل» ليستطلع الأمر، ولكن الشاب أمسكه من ذراعه قائلا:

ـ يجب أن نبقى هنا بعض الوقت.. لن ينصرفوا بسرعة.

كانت الوقفة غير مريحة، هبط الشاب بضع درجات أخرى، أصبح في وسط المخزن، بين أجولة السكر وعلب الشاي والبن وصناديق المشروبات، تلفت حوله مندهشا، ولكن دهشة «فلفل» كانت أقوى، هل يريد الشاب أن يواصل الاختباء في هذا المكان؟ بالطبع كان هذا مستحيلا، يكفي أنه أنقذه من أيديهم هذه المرة، وعليه أن يبحث عن مخبأ آخر، سأله «فلفل»:

ـ أنت طالب في الجامعة، أليس كذلك؟

قال الشاب:أجل.. في كلية الطب.

قال «فلفل»: هؤلاء الناس.. أعني «أمن الدولة» لماذا كانوا يطاردونك؟

قال الشاب: كنا في مظاهرة في ميدان التحرير، أنت تعرف .. المظاهرات لا تهدأ هذه الأيام، تطالب بالحرية والعدالة والخبز لكل الفقراء، وكما يحدث دائما هجم علينا رجال الشرطة بالعصي والقنابل المسيلة للدموع، وأخذ رجال أمن الدولة يطاردوننا محاولين القبض علينا.

كان يتحدث بطريقة عادية كأن المطاردة تحدث له كل يوم، ولكن عينيه كانتا تبرقان وهو يدور برأسه، يتفحص تفاصيل المكان، أصدر صوتا مندهشا، التفت إلى «فلفل» وهو يتساءل:

ـ ما يقولونه عن هذا المكان صحيح إذن؟

قال «فلفل» مندهشا: ماذا تعني.. أي مكان؟

أشار الشاب إلى مكان غائر في نهاية المخزن:

ـ هذا المكان.. إنه يؤدي إلى القبو بلا شك.

نظر «فلفل»إلى حيث يشير، كان يعمل في المقهى منذ سنوات طويلة، ولكنها كانت المرة الأولى التي يلاحظ فيها هذا الباب الصغير،كان منخفضا بعض الشيء، له نفس لون الجدار، وربما لم يره لأنه حين يهبط إلى المخزن تختنق أنفاسه، ويسرع بأخذ ما يحتاج إليه فقط، لا ينظر إلى بقية التفاصيل، قال «فلفل» مندهشا:

ـ لا أفهم شيئا.

ولكن الشاب أسرع نحو الباب، أمسك بالمقبض الصغير الذي لا يكاد يرى، أخذ يديره، يسرة ويمنة، ثم أخذ يدفعه بكتفه، أمسكه «فلفل» وهو يقول مندهشا:

ـ ماذا تفعل؟ ليس لنا الحق في ذلك، سيأتي صاحب القهوة بسبب هذه الضجة، إنه باب قديم، لا يؤدي إلى مكان.

لم يأبه الشاب باعتراضه، ظل يواصل دفع الباب وهو يقول:

ـ هناك قبو خلف هذا الباب، قبو آخر غير هذا.. كان يستخدمه الثوار في أثناء ثورة ١٩١٩، وهناك نفق متصل به إلى ميدان التحرير.

كل ما يقوله غريب وجديد، هتف «فلفل» مندهشا: كيف عرفت كل هذا؟

اكتفى الشاب بأن يقول له فيما يشبه الأمر:

ـ هيا، ساعدني.

وجد «فلفل» نفسه يندفع معه، كانت هناك قوة آسرة في هذا الشاب جذبته إليه، هي التي جعلته ينقذه دون أن يعرفه، وجعلته يهبط معه للمخزن المظلم ويساعده على فتح هذا الباب الغامض. كان مندهشا من كلماته عن النفق، فميدان التحرير ليس قريبا، يبعد أمتارا عديدة عن هذا المكان، ومن المستحيل أن يمتد نفق تحت الأبنية الضخمة والشوارع المتقاطعة. أصدرت المفاصل الصدئة للباب صوتا كصرخة خافتة، ولكنه بدأ ينزاح ببطء، كشف عن هوة مظلمة، وهبت رائحة مكتومة وعطنة؛ رائحة هواء لم يتجدد منذ سنوات طويلة. أخذا يسعلان معا؛ هواء مشبع بغبار قديم، مثير للحساسية، وشعر «فلفل» برهبة وهو يراقب الفراغ المظلم، وهل هذا النفق موجود بالفعل؟ قال الشاب بصوت مرتعد من شدة الإثارة:

ـ لابد أن هناك ضوءا.

مد «فلفل» يده وأخذ يتحسس الجدار بجانب الباب، كانت رطبة، مغطاة بقطرات من الماء، وارتعدت أصابع «فلفل» وهو يلمس بروزا صلبا، كان زرا قديما خشن الملمس، لواه «فلفل» على جنب، ولكن الظلام ظل سائدا. ربما كان المصباح محترقا، وربما لم يكن هناك مصباح أصلا، أدار المفتاح للناحية الأخرى، وشق الظلام ضوء قليل، كأن شمسا صغيرة قد ظهرت من مكان ما، انزاح الظلام، ظهرت عدة درجات مؤدية إلى أسفل، هبوط آخر إلى عمق الأرض، من الذي يتصور أن المقهى يحتوي على كل هذه الأسرار؟ هبط الشاب على الدرج بسرعة، تقافز كأنه يألف المكان ويعرف إلى أين يمضي، هبط «فلفل» خلفه، وجدا نفسيهما في غرفة أرضية أخرى، أصغر قليلا من المخزن الذي يعلوها. لا توجد نوافذ ولا فتحات أخرى، غرفة مصمتة لا يوجد لها إلا مدخل واحد، ومصباح صغير مغطى بالأوساخ يتدلى من السقف، هتف الشاب:

ـ ألم أقل لك؟

نظر «فلفل» مندهشا إلى حيث يشير الشاب، كانت هناك آلة صغيرة وغريبة من الحديد الأسود، مرتكزة على الأرض فوق قوائم معدنية، مثل سيقان غائرة في الأرض، وفي وسطها عجلة دورة مرتبطة ببعض التروس الصغيرة. اقترب «فلفل» منها، دار حولها متأملا، كانت أشبه بحيوان معدني محبوس في عتمة هذه الغرفة

ورطوبتها، مد يده وتحسسها بحذر، كانت باردة وخشنة بعض الشيء، تساءل:

ما هذه الآلة؟

قال الشاب: إنها مطبعة؛ مطبعة قديمة تدار باليد، لابد أنها تعود إلى زمن الثورة.

قال «فلفل»: لماذا أنت متأكد هكذا؟

تلفت الشاب حوله، رأى عدة أوراق متكومة في أحد الأركان، تناولها الشاب ونفض ما عليها من أتربة، تأملها، كان مطبوعًا عليها صور باهتة و بضعة أسطر من الكلمات عليها بقع سوداء صغيرة، صورة لرجل عجوز، شاربه أبيض طرفاه مبرومان، وعلى رأسه طربوش أسود، لابد أن لونه الحقيقي كان أحمر، هتف الشاب في فرح:

ـ انظر .. إنها صورة زعيم الثورة.. سعد زغلول.

كانت صورة باهتة، توشك أن تنمحي، ولكن «فلفل» أمسكها بأصابع مرتعدة. كانت بالفعل صورة الزعيم العجوز، رآها أكثر من مرة قبل ذلك، ولا يدري لماذا كان يعتقد أنها غير حقيقية، كل الصور القديمة كانت تبدو غير حقيقية، ولكنها في عتمة هذه الغرفة المخنوقة الهواء، تبدو حقيقية ومؤكدة.

قال «فلفل»: كيف كانت هذه الثورة؟

قال الشاب: كانت ثورة عظيمة من ثورات مصر.. كان الإنجليز

يحتلون البلاد، والمظاهرات ضدهم لا تهدأ، تماما مثل هذه الأيام. انتهت الحرب العالمية الأولى بعد أن تم إنهاك المصريين تماما، أخذ الإنجليز أموالهم ومحاصيلهم وبهائمهم، وساقوا الفلاحين للعمل في خدمة هذه الحرب، وعندما انتهى القتال أخيرا كانت كل الشعوب تحلم بالحرية والاستقلال، وكان من حق مصر أن تشاركها في هذا الحلم؛ لذلك تألف وفد من كبار رجالها، على رأسهم ذلك المحامي الوطني سعد زغلول، كانوا يريدون السفر إلى باريس لحضور المؤتمر الذي عقدته الدول التي انتصرت في الحرب ويطالبونها بالحرية التي طال انتظارها، ولكن الإنجليز رفضوا خروج الوفد، وقبضوا على كل أعضائه، ليس هذا فقط ولكن نفوهم إلى خارج مصر؛ إلى جزيرة «مالطا». وهكذا اشتعلت شرارة الثورة؛ ثار الطلبة أولا ثم تبعهم العمال والفلاحون، انتشرت الثورة في كل مدن مصر، وحاول الإنجليز مقاومتها، قتلوا الثوار بعنف ووحشية، سقط عشرات الضحايا ولكن الثورة لم تهدأ ولم تتوقف، واستمرت على مدى عامين، حتى عاد سعد من المنفى هو ورفاقه وشكلوا حكومة مصرية وأعطى الإنجليز وعدا بالاستقلال.. كانت ثورة ١٩ هي البداية لحرية مصر.

سكت الشاب وهو يلهث، وتعجب «فلفل» من أن الشاب بالرغم من صغر سنه يعرف الكثير من وقائع التاريخ، فجأة سمعا صوت حركة، التفت «فلفل» مفزوعا نحو مدخل الغرفة، اعتقد أن صاحب المقهى قد أحس بما يحدث وجاء ليستطلع الأمر،

ولكن المدخل كان خاليا. كان الصوت قادما من قلب الغرفة، الآلة الحديدية القديمة تتحرك، العجلة تدور والتروس تتداخل، تراجع الشاب من أمامها، هتف «فلفل» مندهشا:

ـ ياربي .. المطبعة تعمل.

أجل.. كانت المطبعة تدور، تهتز أجزاؤها في غبطة كأنها سعيدة بعودتها للحياة، تغيرت رائحة الهواء داخل الغرفة، أصبح لها رائحة حبر المطابع، نفاذة مختلطة بالنشادر، ثم بدأت تخرج الأوراق من مكان خفي في داخلها. كان صوتها يعلو كأنها حيوان صغير لا يكف عن الدمدمة. في البداية كانت الأوراق خالية، تتساقط على الأرض، كأن الآلة تحاول أن تتخلص مما في داخلها، ثم بدأت تظهر على الأوراق شخبطات وبقع سوداء، ثم تلاقت الخطوط وانتظمت البقع. تناول الشاب واحدة من الأوراق وحدق فيها مندهشا، كانت صورة لشخص ما؛ فلاح مصري، على رأسه عمامة، وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة، ينظر نحوه في دعة واستسلام، كأن عمره كله قد تجمد على صفحة هذه الورقة، تأملها الشاب قليلا، ثم قرأ الكلمات الموجودة تحتها، قال:

ـ اسمه فرغلي عبد المقصود، إنه واحد من شهداء ثورة ١٩، مات يوم العاشر من مارس في الفيوم.

تناول «فلفل» الورقة ونظر إليها مندهشا، ولكن الأوراق

استمرت، توالت الصور الباهتة الملامح؛ طلبة ماتوا فوق كوبري عباس، ملامح شابة، لم تكمل عامها العشرين، طلبة الثانوي، وجوههم أصغر، لم يبلغوا النضج، لم يتخلوا عن أحلامهم بعد، عيونهم واسعة، كأنهم قد شاهدوا الموت، ولكنهم لم يهابوه. لا تبدو عليهم علامات الرعب أو الفزع، بعضهم مات في ميدان الإسماعيلية، وبعضهم ماتوا أمام مدارسهم، كانت هناك أيضا صور للعمال؛ عمال الورش وعمال الترام والسكة الحديد، يرتدون «عفريتة» الشغل، البعض منهم ماتوا داخل الورش، كلهم ماتوا برصاص حي، مباشر اخترق قلوبهم ورءوسهم، تركوهم ينزفون، قال «فلفل»:

ـ لم أكن أعرف أن الضحايا بهذه الكثرة.

تعلو كومة الأوراق على الأرض، لم يعودوا قادرين على الاقتراب منها، أو مواصلة قراءة بقية أسماء الشهداء، ثم توقفت المطبعة فجأة، ساد الصمت على الغرفة، تنهد «فلفل» في ارتياح وهو يقول: الحمد لله، لم يعد هناك المزيد من الموتى.

قال الشاب في صوت مخنوق: إنهم شهداء.

أومأ «فلفل» برأسه موافقا، كان قد أخطأ التعبير، ولم يعد يحتمل المزيد، قال:

ـ يحسن بنا أن ننصرف.

سارا ببطء نحو المدخل، كانت المطبعة وكومة الأوراق بجانبها غارقتين في الحزن، ولكن قبل أن يعبرا المدخل عاد صوت المطبعة، بدأت تتحرك من جديد، نظرا إلى بعضهما في خوف، قال «فلفل»: اتركها.

كان وجه الشاب أصفر وفمه جافا، قال: يجب أن نعرف ماذا تريد أن تقول لنا.

عاد إلى منتصف الغرفة، وقف يراقب المطبعة وهي تدفع من جوفها بكومة جديدة من الأوراق، لم تسقط على الكومة السابقة، ولكنها صنعت لنفسها كومة أخرى بجانبها، انحنى الشاب وتناول ورقة جديدة، قال: إنها صور لشهداء جدد.

عاد «فلفل»، وقف بجانبه يتأمل الصور الجديدة، كانت أكثر وضوحا، ملامحها محددة، والشعر أطول قليلا، كانت لشاب صغير.

قال «فلفل»: لقد أخذت هذه الثورة الكثير من الشهداء.

رد الشاب في صوت مرتعد: إنها ثورة أخرى.. لم تحدث بعد.

شهق «فلفل» مندهشا، كان هذا أمرا غريبا، هل هذا معقول؟ بعد كل هذه السنوات من الصمت والخوف والخنوع تشتعل ثورة أخرى، نظر إليه مستطلعا، كانت الورقة ترتعش في يده، قال الشاب:

ـ ستحدث ثورة في يناير من عام قادم؛ ثورة هائلة ستطيح بالنظام، سيشارك فيها الشعب كله، ويسقط الكثير من الشهداء.

ظلت الصور تتوالى؛ شباب صغار، زهور حزينة، طلبة وشباب في مقتبل العمر، ثم شهق الشاب، كانت هناك صورة قد اندفعت من جوف المطبعة وسقطت تحت قدميه مباشرة، مد أصابعه وتناول الصورة ونظر فيها وهتف بصوت لا يكاد يسمع:

ـ إنها صورتي.

اقترب «فلفل» وألقى نظرة سريعة، كانت بالفعل صورة الشاب، شعره أطول قليلا، ولحيته غير محلوقة، ولكن الملامح نفسها، ولأول مرة يعرف أن اسمه «يوسف عبد المغني، استشهد يوم ٢٨ يناير ٢٠١١، كل شيء واضح ومحدد.

توقفت المطبعة، وتوقف سيل الصور الحزينة، وساد صمت مطبق فوق الغرفة، وظل وجه الشاب جامدا،أوشك «فلفل» أن ينفجر باكيا، ولكنه تماسك، وضع يده على كتف الشاب، قال في همس:

ـ كل هذا في علم الغيب.

قال الشاب في صوت خافت: أنا لست خائفا.

طوى الورقة ووضعها في جيبه، وضغط «فلفل» على كتفه فانصاع الشاب وسار معه، عبر المدخل، وصعدا الدرج. ترك

«فلفل» الباب مفتوحا، لم يرد أن يترك الشاب يسير وحيدا، عبرا المخزن وعاودا الصعود إلى أعلى، أغمض «فلفل» عينيه من شدة الضوء، وسمع ضجيج المقهى والطرقات والحياة تضج من حولهما. كان المقهى قد أصبح مزدحما، الزبائن يجلسون حول كل المناضد، وصاحب القهوة غاضب محتقن الوجه، ولكن «فلفل» لم يبال به، أوقف الشاب عند مدخل المقهى، وتقدم هو ونظر إلى كل الاتجاهات، حاول أن يتبين إن كان هناك أحد من رجال الأمن أم لا، أشار للشاب وهو يقول:

ـ الشارع آمن، يمكنك أن تخرج.

ردد الشاب الكلمات نفسها: أنا لست خائفا.

وخرج من المقهى، سار بخطوات بطيئة، ولكن رأسه كان مرفوعا.

... توقف «نجيب محفوظ» عن القراءة، رفع وجهه وظل يحدق ساهما، كان «فلفل» يراقبه من بعيد، لم يتصور أن يظل هذا الكاتب الكبير منهمكا كل هذا الوقت في قراءة كراسته، حمل كوبا من الماء واقترب منه، وضعه على المنضدة أمامه، رفع «نجيب محفوظ» وجهه نحوه، رأى «فلفل» دموعا تنحدر من عينيه، تساءل «فلفل» في رهبة:

ـ هل تبكي يا أستاذ؟

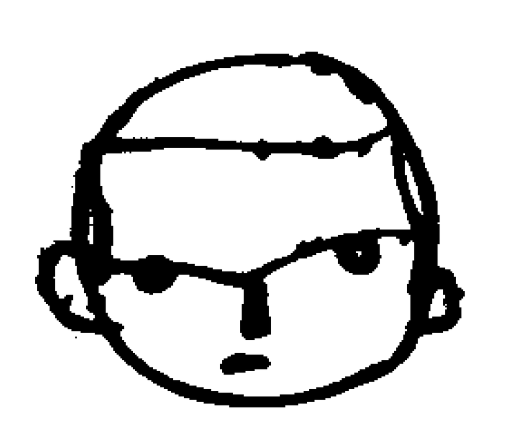
قال «نجيب محفوظ»: أجل يا «فلفل»، أبكي من أجل هذا

الشاب.. من أجل كل الشباب الذين سيدفعون ثمن الثورة..ما كتبته غريب ومحير يا «فلفل» .

توقف عن الكلام قليلا، أخرج منديلا من جيبه وحاول أن يمسح به عيونه، ولكنها كانت ممتلئة بدموع أخرى، عاد يقول:

ـ هذا اليوم الذي قلت إنه سيجيء.. يوم الثورة.. كنت أتمنى أن أعيش حتى أراه.

وأعطاه الكراسة، ونهض خارجا من المقهى، وظل «فلفل» يتابعه ببصره حتى غاب وسط الزحام.



حكاية لاعب التنس

قال الأب: هيا يا «كرووم».. حان موعد تدريب التنس.

ضغط «كريم» على زر الكومبيوتر، تحولت الشاشة للون الأزرق وأخذت تتأهب للانغلاق، التفت إلى أبيه وهو يقول:

ـ الشوارع ستكون خطرة يا أبي.. لماذا لا نؤجله قليلا؟

فكر الأب أن «كريم» لم يعد قادرا على مفارقة الجهاز، لو تركه لظل محبوسا في غرفته دون حاجة للحركة والضوء والهواء النقي، سار الأب إلى حيث يوجد مضرب التنس ورفعه عاليا:

ـ لا أعذار.. المظاهرات بعيدة عن هنا.. ومنطقة النادي هادئة.. و«الكوتش» في الانتظار.. لم يتبق إلا أنت.. ارتد ثيابك.. والحق بي.

خرج الأب من الغرفة تاركا له الفرصة ليرتب نفسه، تأمل المضرب الذي كان مازال يحمله في إعجاب، من النوع الثمين، اشتراه بعد أن تأكد أنه نفس النوع الذي يستخدمه «نادال»؛ لاعب

التنس رقم واحد في العالم، السر دائما في المضرب؛ مضرب جيد يعني لاعبا جيدا، كانت الأم جالسة في ركن الغرفة، لا يصدر منها أي صوت، عيناها جاحظتان، تتابعان الأضواء المنبعثة من شاشة التلفزيون، قال لها في قلق:

ـ مالك يا أم كريم؟

لم ترد عليه، ارتجف جسدها وعيناها معلقتان بالشاشة، المشاهد نفسها التي تملأ التلفزيون هذه الأيام، أعلام ترتفع عاليا، شباب يصرخ غاضبا، ومدرعات الشرطة تقتحم صفوفهم، دون مبالاة بمن يسقط تحتها، ثم ظهرت فجأة صورة رجل، احتل وجهه الشاشة كلها، يرتدي زي الشرطة ويضع على كتفيه نجوما وسيوفا، إضافة إلى علامات ملونة على صدره، كان غاضبا، يلوح بقبضته مهددا الجميع. انكمشت الأم خوفا من صوته الغاضب، التصقت بالحائط كأنها تريد أن تختفي من أمامه، ونهض الأب مسرعا، ضغط على زر التلفزيون، انطفأت الشاشة واختفى وجه الرجل الغليظ، كفت الأم عن الارتعاد، قال متبرما:

ـ حاجة تفلق، لماذا يسمحون لهؤلاء الناس أن يدخلوا بيوتنا بلا استئذان، يتكلمون ويهددون، لا يدرون ماذا تفعل الكلمات بالناس؟

خرج «كريم» من الغرفة وهو يحمل الحقيبة على ظهره، كان الأب قلقا من أن يترك الأم وحدها، كان يعرف أنها ستفتح التلفزيون

فور أن ينزلا، ستجلس وحدها فريسة للوحدة والخوف، ولكنه لم يجد بدا من السير مع ابنه، ركبا السيارة، كان «كريم» شاردا، تناول المضرب وأخذ يتأمله كأنه يتساءل عن جدواه، قال الأب وكأنه يقرأ أفكاره:

ـ في كرة القدم هناك عشرون لاعبا يتنافسون حول كرة واحدة.. غوغاء.. ولكن في التنس أنت ملك، تمتلك الكرة والمضرب ونصف الملعب، من أجل هذا هي لعبة الأمراء والنبلاء.. لم أختر لك هذه اللعبة عبثا.

أحس الأب بالفخر بنفسه، بهذا المنطق يستطيع أن يقنع أي شخص، ولكنه اكتشف أن «كريم» لم يكن يستمع إليه، كان بصره معلقا بما يدور في الشارع المقابل، مجموعة كبيرة من الشباب، في العمر نفسه وربما أكبر قليلا، بعضهم يرفع أعلام مصر ذات الألوان الثلاثة، والبعض الآخر يحملون صورا ولافتات، لا يكفون عن الهتاف. فتح كريم زجاج نافذة السيارة، قال الأب في ضيق: أغلق الزجاج يا «كريم»، الهواء بارد.

قال «كريم» وهو يكمل فتح الزجاج: أريد أن أسمع ماذا يقولون.

مد رأسه خارج النافذة، قال الأب في تبرم:

ـ هكذا ستصاب بالزكام.

حدق «كريم» فيهم وهم يتزايدون مع كل خطوة، ينضم إليهم

المارة، يلوحون بقبضاتهم في الهواء، يصيحون في إيقاع واحد: «الشعب .. يريد تغيير النظام»، تمنى الأب لو يستطيع أن يسرع هاربا بالسيارة، ولكن الطريق كان مزدحما بالمزيد من السيارات، كل شيء واقف تقريبا، حدَّق في «كريم» الذي بدا وكأنه يتشرب الهتافات، يحرك شفتيه ويردد الشعارات معهم دون صوت. استغرب الأب أن هؤلاء الشباب قد انتشروا في كل مكان، وصلوا حتى إلى هذا الحي الهادئ. انفتح الطريق فجأة، وأسرعت السيارات بالهرب، وضغط الأب على دواسة «البنزين» بقدر ما يستطيع، ظل «كريم» مطلا من النافذة وهو يتابعهم، هل كان يشعر بالأسف لأنه ليس معهم؟

من حسن الحظ أن أسوار النادي قد ظهرت قبل أن تأتي مظاهرة جديدة، دخل بسيارته مسرعا من البوابة، وكان الهدوء مخيما، والسحب الرمادية تغطي السماء، والأشجار مليئة بالغربان الواقفة في صمت فوق الأغصان، لا تحلق ولا تنعق، ولكن يسود النادي نوع من الهدوء الغريب. أخيرا هناك مكان.. لا توجد فيه مظاهرات.

كان «الكوتش» في انتظارهم في منتصف الملعب، ولم يكن هناك لاعبون آخرون، قال محمسا «كريم»:

هيا يا بطل.. أرنا مهارتك اليوم.

لم يبد «كريم» متحمسا للعب، أخذ يفرغ علبة الكريات الصفراء في تكاسل، على الرغم من أنها كانت من النوع الأجود. رفض الأب أن يلعب «كريم» بكريات النادي المتآكلة؛ لأن هذا يمكن أن يؤثر في

مستواه، بدأ التدريب، ضربات خفيفة تنقل الكرة عبر الشبكة. «كريم» غير مهتم والمدرب يستحثه، يوجهه كيف يتلقى الكرة وكيف يردها، اكتفى الأب بالجلوس على مقعد عند حافة الملعب، لم يتجول وسط الخضرة، أو يبحث عن أصدقائه القدامى، كان الأمر المفضل عنده هو مراقبة كريم، هذا المخلوق الصغير، كان قد أصبح متحمسا الآن، يعدو ويصرخ ويشهق، يتحسر مع كل ضربة خاطئة، أو يشرق سعيدا بعد أن يقوم بضربة موفقة. لم يكن «كريم» هو ولده الوحيد فقط، ولكنه التعويض عن كل شيء، فشل الأب في تعلم السباحة حقا، ولكن «كريم» يجيدها، تمنى أن يلعب التنس، وهاهو «كريم» يعوضه عن ذلك، لم يكن يأتي للنادي ولكن «كريم» هو الذي جعله يأتي بصورة منتظمة، حمدا لله، «كريم» فيه الكفاية.

أفاق من شروده فجأة على صوت ضربات الكرة، رأى «كريم» يتحرك بسرعة من خط بداية الملعب حتى نهايته، يوجه المضرب ويلطم الكرة بقوة، ينجح في التقاطها من أي مكان ويوجهها إلى أبعد زاوية، بعيدا عن متناول «الكوتش». كان الأخير هو الذي يلهث وهو يحاول مقابلة الكرة، «كريم» هو المتحكم في المباراة الآن، يوجه المدرب بضربات قوية وسريعة، دهش الأب، لم يتعود أن يراه وهو يلعب بهذه الطريقة، لم يكن متحمسا فقط ولكنْ كان غاضبا، ينفس عن غضبه الداخلي مع كل ضربة، ولكن لماذا؟ راقبه الأب، يبدو غريبا، يعاني من شيء لا يفهمه، راقب «الكوتش» أيضا وهو يجاهد لاهثا، لا يريد أن يتراجع ولا يتخاذل أمام تلميذه.. ولكن بلا جدوى.

وفجأة ألقى المدرب بالمضرب على الأرض، وهو يهتف في حدة:

ـ «فركش».. التمرين انتهى.

طوح «كريم» بالكرة بعيدا، لم يقل شيئا، استدار بسرعة وتوجه إلى الحمام، كما هي عادته عقب كل تمرين، سار «الكوتش» حتى وقف أمام الأب وهو يلهث، قال منفعلا:

ـ هل رأيت؟ إنه يحاول أن يهزمني.

قال الأب: ربما هو متحمس قليلا.. على أي حال لا تنسَ أنه تلميذك.

لم يخفف هذا القول من انفعال «الكوتش» واصل القول:

ـ ولكنه أصغر من أن يتحداني، كان عليه ألا ينسى أنني «الكوتش».

فكر الأب في نفسه، لم يعد «كريم» صغيرا، وأصبح من الصعب التحكم فيه، جلس «الكوتش» على المقعد، أمسك فوطة متسخة بعض الشيء وأخذ يجفف بها عرقه، قال في صوت خافت كأنه يحدث نفسه:

ـ لم أعد أفهم هؤلاء الشبان الصغار، إنهم جيل مختلف، لا يأبهون بأي تعليمات، لا يأبهون بنا، هل رأيت مظاهراتهم في الشوارع؟ لا يعجبهم أي شيء.. يريدون تغيير النظام والحكومة والرئيس، من أين جاءوا بهذه الأفكار؟ لقد مرت أعوام كثيرة دون

أن يتغير شيء، حتى نسينا أن الزمن يمر، ثم نراهم وقد ظهروا فجأة، من أين أتتهم هذه القدرة على تحدي النظام؟ أنا أرتجف لمجرد أن أتخيل ماذا سيواجهون من قوة.

لم يكن الأب يحب الحديث في السياسة، خاصة مع مدربي «التنس»، نهض قائلا:

ـ متى موعد التمرين التالي؟

قال «الكوتش»: عليه أولا أن يكف عن محاولة هزيمتي.. قل له ذلك.

قال الأب دون اقتناع: وهو كذلك.

وجد «كريم» خارجا من باب الحمام، كان هادئا كأنه لم يفعل شيئا، قال له:

ـ لقد لعبت بشكل جيد، هذا «الكوتش» المسكين لا يتصور أن من الممكن أن يتغلب التلميذ على أستاذه، مع أن هذا هو الشيء الطبيعي الوحيد في العالم.

لم يقل «كريم» شيئا، كان الشارع خاليا، مليئا فقط بالأدخنة ورائحة النشادر، المدينة كلها لا تتنفس سوى هذا الغاز، ولا تسمع سوى صيحات الشباب الغاضبة، قال الأب:

ـ الآن سنعود للبيت.. نتناول العشاء معا، وتذاكر قليلا قبل النوم.. بعد هذا المجهود ستنام نوما عميقا.

قال «كريم» فجأة: أبي .. لماذا تكرر عليَّ ذلك؟ نحن لا نفعل إلا هذه الأشياء.

كان صوته متبرما، مازال الغضب في داخله، أخرج نصفه في الملعب، ولكن النصف الثاني يغلي ويجعله متوترا.

كانت الأم نائمة أمام التلفزيون، والشاشة تعرض مشاهد العنف نفسها، تناول الأب و«كريم» العشاء معا في صمت، وعندما دخل إلى غرفته وجد الأب نفسه وهو يدخل خلفه، ويجلس على الأريكة المواجهة لمكتبه. بدأ «كريم» المذاكرة على الفور، راقب الأب وجهه الصغير، كان سريع التعلم، تذكر عندما كان صغيرا وهبط معه إلى حوض السباحة، في الجزء غير العميق طبعا، حمله على يده وأخذ يرشده، كيف يشد جسده ويضرب الماء بذراعيه ليظل طافيا، وهكذا مرة بعد مرة حتى أخذ جسده في التوازن. بدأ يطفو على سطح المياه، ويدور من حوله، قال المدرب الذي كان يراقبه من فوق حافة المسبح: هَذا مدهش.. لقد أجاد التعامل مع الماء من المرة الأولى.

وعندما التفت نحو «كريم» وجده قد ذهب بعيدا، إلى الجزء العميق من المسبح، كان طافيا، ولكنه خاف على جسده الصغير أن يغوص فجأة في الماء، ولكنه ظل طافيا، كان واضحا أنه يستطيع الآن أن يقف وسط الماء، صاح بصوت عال: تعال هنا يا أبي، قال الأب: لا أستطيع يا بني، ليتني أستطيع، وأدرك في هذه اللحظة أن «كريم» سيسبقه دائما.

كانت علاماته في المدرسة متقدمة، بارعا في التعامل مع الكومبيوتر، مرحا مع أصدقائه في النادي. كائن يتشكل، حياة تنمو، أمل يتحقق، ولكن الأب يحس بالاختناق، يحاول أن يلتقط أنفاسه، يسمع ضجة قادمة من بعيد، هل هو نائم أم مستيقظ؟ «كريم» يقرب وجهه منه، يقبله على جبهته، شفتاه صغيرتان، تمسه كأنه عصفور قبل أن يطير.. إلى أين تذهب يا «كريم»؟ توقف ياصغيري.. أنت لست عصفورا.. يكفي أن تسبح فوق سطح الماء.. وأن تقفز من على الأرض وأنت تلوح بالمضرب .. ما أجمل اللحظة التي تكون فيها أمامي.. تمهل قليلا.. دعني أتأمل ملامحك.. فأنا رجل عجوز وأنت كل ما لديَّ.

فتح عينيه.. كان يحلم.. ولم يكن «كريم» موجودا.. كان المصباح مضاء، والكومبيوتر شغالا، وعلى الشاشة صورة للشباب الذين يسيرون في الشوارع صائحين. كل شيء على حاله إلا «كريم» فهو غير موجود، أصوات في الخارج، غمغمات وبكاء خافت، هل كانت الأم تبكي؟ لم تكن وحدها، هناك أصوات أخرى، كأن ردهة المنزل ممتلئة بالناس، نهض وفتح الباب وقلبه يدق في خوف. هناك أناس كثيرون بالفعل، بعض من أقاربه، وأقارب زوجته، البعض منهم لم يرهم منذ شهور طويلة، ما الذي أحضرهم جميعا في هذه الساعة؟ ولماذا ترتدي النساء كل هذا السواد؟ ولماذا يحني الرجال رءوسهم إلى أسفل؟ ظل واقفا، لماذا ينظرون إليه في ذهول ولا أحد يتكلم، لا أحد يخبره بما

يحدث، حتى زوجته، متكومة في أحد الأركان، تكاد تختفي بين ثياب النسوة السوداء. يتحرك واحد من الرجال ويتجه نحوه، لا يتبين ملامحه إلا بعد أن يصبح أمامه، إنه «محسن» أخوه. أين كنت يا رجل؟ يمد يده ويحتضنه، يربت على ظهره، وهو يقول:

ـ لقد ذهبت إلى مشرحة «زينهم» اليوم.. كانت الجثث كثيرة، ولكن ..الحمد لله، وجدنا جثمانه، سنتسلمها ونصلي عليه جميعا، أمر الله، شد حيلك.

ينظر إلى وجهه حائرا، عَمَّ يتحدث بالضبط؟ أي مشرحة، وأي جثمان؟ يبتعد عنه «محسن»، يسير إلى حيث تجلس زوجته، توسع النسوة له الطريق حتى يقترب منها، يضع يده على كتفها، يقول لها:

ـ هل أنت بخير ..؟

تنظر إليه، عيونها واسعة ووجهها بالغ الشحوب، لم يكن يدري أن عينيها بهذا الاتساع وكل هذا اللمعان،كيف يمكن أن يكون فيها هذا القدر من الدموع؟ لم تتكلم، يعرف أنها غير قادرة على الكلام، يقول:

ـ لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

يخرج من الغرفة دون أن يوجه كلماته لأحد آخر، هبط إلى الشوارع، رائحة الغاز في ازدياد، والسحب البيضاء تنام على الرصيف، أحجار وفوارغ معدنية ولافتات ممزقة وقضبان مقتلعة

وإطارات سيارات محترقة وبقع من دم لم يجف، وربما لن يجف أبدا. الشوارع خالية والنوافذ مغلقة، ليس في حاجة لأحد، إنه يعرف طريقه جيدا، من بعيد، ربما من شارع مواز، يُسمع صوت حاد ومارق لطلقات الرصاص، انفجار مكتوم لقنابل الغاز، ودوي مشروخ لقذائف الخرطوش. ارتفعت الأصوات الغاضبة، زادت وتيرة الطلقات من كل الأنواع، ثم طغى صوت صفارات الإسعاف على كل الأصوات.

هناك شيء يحترق، أدخنة سوداء تجعل الجو غائما، ولكنه لم ير أحدا، ربما لا يحدث شيء، ربما تدور هذه الأصوات في عقله فقط، مازال يحلم، جالسا على الأريكة في غرفة «كريم»، ولا يوجد ناس يرتدون السواد في صالة المنزل. أحس أنه يقترب من المكان الذي يريد الوصول إليه، حواجز من الأسلاك الشائكة تمتد لعدة أمتار، لا يدري كيف وجد طريقا للمرور من خلالها، يدور حول كتل من الخرسانة، يصل إلى السور الحائل اللون الذي فقد لونه الأصلي، عليه بقع حمراء قانية من أثر الدماء، وبقع سوداء من أثر البارود، لم يجد أحدا عند البوابة الخارجية، ولا الداخلية، كل الحراس اختفوا، لعلهم منشغلون بالحرب في مكان آخر. اجتاز البوابات دون أن يوقفه أحد، كان المصعد معطلا، ولكن بدا وكأنه يعرف طريقه، صعد السلم، كانت هناك أصص من النباتات الميتة عقب كل عدد من الدرجات، حتى النباتات تموت في هذا المكان، ظل يواصل الصعود، سار في طرقة طويلة مكسوة بسجاد أحمر،

اللون الأحمر كثير أيضا، سار حتى سمع صوته قادما من إحدى الغرف، نفس الصوت الأجش الذي أخاف الأم عندما كان يتحدث على شاشة التلفزيون. تقدم، كان مكتب الرجل مكونا من عدة غرف متداخلة، كيف كان يعرف طريقه بينها كل صباح؟ كيف يصل إلى مكتبه ليأمر وينهي؟ سمع صوته يرتفع، يصرخ في عصبية، أرشده هذا إلى مكانه، كان الرجل موجودا بالفعل، بنفس ملابسه الرسمية الداكنة، عليها النجوم والنسور والأنواط، ووجهه المستدير عليه النظارات السوداء نفسها، لماذا يرتديها داخل هذا المكتب المعتم؟ خطا إلى الداخل، كان الرجل يمسك بالهاتف وهو يصرخ:

ـ أطلقوا عليهم قنابل الغاز.. كل ما لديكم من غاز.. لا أريد لأحد منهم أن يتنفس أو يرى ما حوله.

وما إن وضع السماعة واعتدل في جلسته حتى وجد الأب واقفا بالقرب من باب الغرفة، هتف فزعا:

ـ من أنت؟ كيف دخلت إلى هنا؟ لماذا لم يمنعك الحرس؟

تقدم الأب عدة خطوات، وحين رأى الرجل اقترابه منه بدا عليه فزع غير مبرر، استدار إلى منضدة بجانب مكتبه عليها صف من الأزرار، أخذ يضغط عليها جميعا مرة وراء الآخر، لكن الأب ظل يتقدم، لم يبالِ به، جلس على المقعد المقابل له. يئس الرجل من أن يستجيب له أحد، كف عن الضغط على الأزرار، استدار نحو الأب وهو يقول من بين أسنانه:

ـ يجب ألّا تكون هنا.. يجب أن تغادر هذا المكتب فورا، البلد في مصيبة وأنا أحاول إنقاذها.

قال الأب في صوت حازم: أريد ابني.. «كريم» ابني الوحيد.

قال الرجل وهو مذهول:ابنك.. أي ابن؟ هذه ليست حضانة.. ابحث عنه في مكان آخر.

كان صوته قويا، يحاول إرهابه، ولكن الأب هتف به في حدة:

ـ أنت المسئول.. أنت الذي قتلته.

هتف الرجل: من قال ذلك؟ نحن لا نقتل أحدا.. نحن نحاول فقط أن نرهبهم.

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف، انتفض الأب، وأسرع الرجل يرفع السماعة، استمع قليلا لما يقوله الطرف الآخر، هتف صائحا:

ـ ماذا؟ نفد الغاز.. لقد كانت الكمية كبيرة.. استخدموا الخرطوش.. الرصاص المطاطي.

وضع السماعة غاضبا، قال الأب: وهذه الأشياء تقتل أيضا.

قال الرجل: نحن لا نقتل أحدا.. نصيبهم فقط في أعينهم من باب التحذير، اسمع لماذا لا تذهب للبحث عن ابنك في الميدان؟

قال الأب: أنت قاتل.. وكاذب.

قال الرجل: لو كنت قاتلا لقتلتك الآن، ولو أن هذا لا يمنع أن كل من في الميدان مشاغبون ويستحقون القتل.

قال الأب: لم يكن ابني يستحق ذلك، ولا أولاد الآخرين، هل تعرف كيف يمكن أن تربي طفلا، أنت تعطيه عمرك، تسهر بجانبه في ليال المرض، تحمله على صدرك وتجري به للمستشفيات، وتنتظره أمام المدرسة، وتسهر معه ليلة ظهور نتيجة الامتحان، وتأكل وتشرب وتضحك معه، تعطيه أيام عمرك فيعطيك بهجة بلا حد؟ كيف يمكن أن تقتلوا أولاد الناس بهذه البساطة؟

عاد الرجل يردد في بلاهة: نحن لا نقتل أحدا.. من المؤكد أن هناك غرباء.. يأتون ويقتلون ويختفون سريعا، ثم يلصقون التهمة بنا.

أخذ الجهاز الذي أمامه يطن من جديد. نظر إليه الرجل في تردد، كانت هناك نقطة ضوء حمراء تومض وتنطفئ بشكل متلاحق. مد الرجل أصابعه وتناول الجهاز، انبعثت منه أصوات متداخلة، كان هناك من يصرخ من الطرف الآخر، وهتف الرجل مذعورا:

ـ ماذا؟ الخرطوش ليس كافيا... استخدموا الرصاص الحي.. لا ترددوا.

وضع الجهاز على المكتب في عصبية، ولكنه فوجئ بالأب وهو يحدق فيه فاغر الفم كأنه مصاب بصدمة مروعة. لا توجد في عينيه إلا نظرة غريبة من المقت والاحتقار. لأول مرة.. أحس الرجل بالضعف، وأن هذه النظرة توشك أن تخترق أعماقه، قال:

ـ ماذا؟ أنا فقط أؤدي عملي.. هؤلاء الشبان لا يخشون شيئا.. ويجب أن نوقفهم.

قال الأب: ألا تشعر بما تفعل؟ أنت تقضي على حياة وأحلام ومستقبل.. هؤلاء الشباب ليسوا زرعا شيطانيا، كل واحد منهم هو أمل أسرة، مثلما كان ابني هو أملي ومصدر سعادتي، أنت تدمر كل هذا لمجرد أمر واحد يصدر من شفتيك.

قال الرجل مبررا: وماذا عليَّ أن أفعل؟ لقد جاءوا من أجل الموت.

قال الأب: هل أنت غبي لهذه الدرجة.. لا أحد يحب الموت.. الأصل هو الحياة.. لقد جاءوا من أجل الحياة؛ حياة أفضل، لا يتحكم فيها أمثالك، الموت والحياة بيد الله، ولا يجب لأمثالك أن يتحكموا في مصير البشر.

توقف الأب وقد تلاحقت أنفاسه، وظل الرجل يحدق فيه، فك أزرار معطفه، قال:

ـ اسمع.. لا أستطيع أن أفعل لك شيئا الآن.. هؤلاء الشباب سيموتون جميعا .. نحن أقوى مما يتصورون.. إنهم لا يملكون سوى حناجرهم التي تصرخ.. وربما بعض من أحجار الطريق، ولكننا نملك كل شيء، لو كنت حريصا عليهم، فاذهب وقل لهم أن يتراجعوا.. لأنه بالفعل لا يستطيع أحد أن يقف في طريقنا.

ومرة أخرى أخذت كل الأجهزة تطن دفعة واحدة؛ الهواتف بألوانها المختلفة، الجهاز الموضوع على المكتب يتحرك عاجزا عن الاستقرار في مكانه، ظل الرجل ينظر إليها، لا يعرف بأي واحد منها يبدأ، وربما كان خائفا منها جميعا، والأب الذي يجلس أمامه متحفزا، تواصل الطنين، تجمعت في صوت يشبه زئير الحيوانات الجائعة، وأخيرا تحركت أصابع الرجل وأمسك أحد الهواتف ورفعه إلى أذنه، ثم هتف فجأة:

ـ ماذا؟ تتراجعون.. مستحيل .. قفوا في أماكنكم.

وضع الهاتف في عصبية، نسي وجود الأب، رفع الجهاز الذي كان يضوي، عاد يصرخ وقد ازداد انفعاله: لا تحدثوني عن التراجع.. استخدموا كل أنواع الأسلحة.

وعاد يتناول جهازا ثالثا وهو يقول: توقفوا..ماذا تعنون أنكم غير قادرين على مواجهتهم؟ أنتم تملكون كل شيء.. لا تتراجعوا.. مستحيل أن تنسحبوا.

وضع السماعة، ليس بعنف هذه المرة، ولكنها سقطت من يده، توقفت كل الأجراس فجأة، ساد صمت عميق، وظل وجه الرجل محتقنا، عاجزا عن التقاط أنفاسه بصورة طبيعية، قال:

ـ لقد ضعت، ضعنا جميعا.

بدا أنه قد نسي وجود الأب، وأخذ يهمهم في صوت خافت، كأنه يحدث نفسه:

ـ سيقبضون عليَّ.. ويقدمونني للمحاكمة .. ربما يعدمونني.

تلفت حوله حائرا، يبحث عن مخرج يهرب منه، انحنى فجأة وفتح درج المكتب، مد يده وأخرج منه مسدسا، حرك ذراعه كأنه يبحث عن هدف يصوب له، رأى الأب مازال جالسا في مكانه، صوب المسدس نحوه، تمسك الأب بمقبض المقعد الذي يجلس عليه، ولكنه لم ينهض من مكانه. حرك الرجل ذراعه ووجه فوهة المسدس إلى رأسه، خفق قلب الأب، أغمض عينيه، لم يكن يريد أن يرى مشهد الطلقة وهي تخترق رأسه، ظل مغمض العينين، ولكنه لم يسمع شيئا، فتح عينيه مرة أخرى، كان الرجل مازال واقفا في مكانه خافض الرأس، ولكنه كان قد أنزل يديه، كان عاجزا عن أن يأخذ قراره، نهض الأب واقفا، نظر إلى الرجل وقال له:

ـ كنت أعرف أنك لن تفعلها، أنت أكثر جبنا من أن تعاقب نفسك، أنت فقط لا تجيد سوى قتل أولاد الآخرين.

نظر الرجل إليه في غيظ، كانت عيناه محتقنتين، ويلتقط أنفاسه في صعوبة، ود الأب لو يبصق عليه، ولكنه أحس أنه على وشك الاختناق، أدار ظهره له وغادر الغرفة، هبط الدرج، حتى خرج من باب المبنى.

ترك المبنى الكبير خلف ظهره، كانت الضجة القادمة من بعيد تزداد ارتفاعا، والأصوات تزداد غضبا، وجد قدميه تتجهان

نحو الميدان، الهواء خانق، والأرض مليئة بالأحجار المتكسرة وفوارغ القنابل والكثير من بقع الدم، ظهر الميدان وهو يموج بالشباب، تندفع مجموعات منهم للأمام، في اتجاه صفوف من الجنود الذين يرتدون السواد، كانوا يتراجعون وهم لا يتوقفون عن قذف الشباب بالطلقات، جريح ملقى على الأرض، تقبل إحدى الدراجات النارية، يسرع اثنان ليرفعا الجسد الجريح ويضعاه فوقها. يواصل الأب التقدم حتى يحيط به زحام الشباب، معظمهم يشبهون «كريم»؛ عمره نفسه وطريقته في الملابس نفسها، لعله يوجد بينهم بالفعل. من بعيد تنبعث أصوات طلقات مكتومة، يظهر فجأة صف طويل من الجنود، بدروعهم اللامعة، التقط الأب أحد الأحجار، واصل التقدم نحوهم وهو يجز على أسنانه، ولكن أحس بمن يمسك بذراعه. التفت نحوه، كان «كريم» يقف أمامه، كلا، لم يكن هو، ولكنه يشبهه تماما، حتى صوته، نفس طريقته في النطق، كان يقول:

ـ يا أبي.. لا تتقدم أكثر من ذلك.. قد تعرض نفسك للخطر.

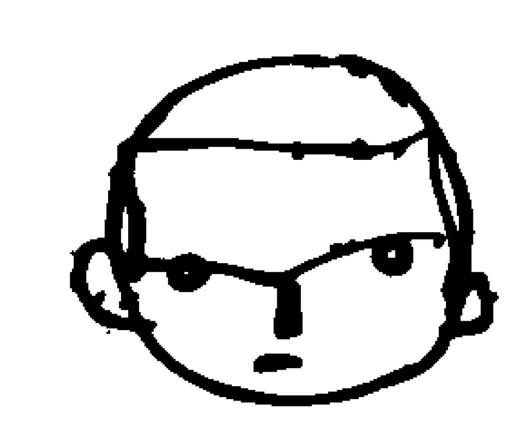
حدق فيه مذهولا، يقول له: يا أبي.. كان يعتقد أنه لن يسمع هذه الكلمة بعد الآن، دوت أصوات طلقات، تناثرت من حولهم، التف حوله عشرات الشباب، كأنهم يحمونه من أي طلقة طائشة، عاد الشاب يقول:

ـ نحن نتحرك أسرع.. أرجوك ابقَ قليلا خلف هذا الحاجز..

نحن واثقون أنهم سيتراجعون، وسيصبح الميدان لنا، ستصبح مصر كلها لنا.

امتلأت عينا الأب بالدموع، أوشك أن يحتضنه وهو يهتف.. أجل يا ولدي، أجل يا كريم..

وقف خلف الحاجز، ولكنه ظل يراقب حركتهم، وهم يندفعون ثم يتراجعون، تماما كما كان يراقب «كريم» وهو يلعب التنس.



حكاية الغلام الذي يحدّث النهر

حكاية الغلام الذي يحدّث النهر

ما إن خطا «زيتون» إلى داخل مياه النهر، حتى انزاحت المياه في دوائر متتابعة وصاح النيل مفزوعا:

ـ ماذا تفعل يا ولد؟ اخرج من جوفي.. لا أريد المزيد من الغرقى.

ولكن «زيتون» واصل توغله وسط الموج، ارتجف جسده، كان حزينا، كل ما يوجد على الشاطئ يثير رعبه، جوع دائم وخوف يتجدد، والأهم من ذلك أن هناك «مطوة» وعصابته، الغرق في النهر أفضل من انتظار الموت على يديه، ربما يعطيه الماء بعضا من الأمان، لكن النهر مازال مصرا على رفضه، يقول من أغواره العميقة:

ـ اهرب بعيدا.. لا تحملني ذنبك.. لا يوجد عندي سوى الموت.. ابحث عن مكان واختبئ فيه.. الحياة جميلة.. وأرض الله واسعة.

كيف تكون جميلة وهو بلا أهل ولا بيت ولا أحد يحميه؟ يبكي «زيتون» وهو يخرج من الماء، يبدأ في العدو، سيفعل كما نصحه النهر، لابد أن يجد مكانا، كانت لحظة من الشجاعة والجنون، شعر

بها في اللحظة التي كان يواجه فيها «مطوة». اختطف منه السكين وجرحه في وجهه أمام أتباعه، بعد ذلك تبددت لحظة الشجاعة القصيرة، ولم يعد أمامه سوى الهرب، لكنه متأكد أن «مطوة» سيظل يبحث عنه حتى يرد له الجرح، وربما يشرِّح جسمه كله، سيبحث عن مكان تحت الأرض، ربما في نفق المترو، ولكن ميدان التحرير مزدحم فوق العادة، عشرات الشباب يصرخون ملوحين بقبضاتهم، كانت فرصة ليختبئ بينهم، ولكن من يضمن أنهم لن يرحلوا ويتركوا الميدان خاليا؟ من الأفضل أن يهبط إلى نفق المترو، هناك..سيجد ركنا مظلما بعيدا عن العيون، حتى لو عرف «مطوة» مكانه، يمكنه أن يقفز في أي قطار عابر ويذهب للاختباء في محطة أخرى.

ولكن إلى متى يستطيع الاختباء؟ لا يهم.. المهم أن تمر الأيام.

ولكن أيام المخبأ كانت قليلة، حتى هذه الليلة كانت أعين الحرس غافلة عنه، منشغلة بالمظاهرات التي لا تهدأ بالأعلى، تركوه دون مطاردة لعدة أيام، تحول الركن المظلم إلى مأوى دائم، بارد في الليل، ولكن شبه آمن، العيب فيه أنه لم يكن قادرا على النوم قبل أن يمر القطار الأخير، وتخفت الأضواء، في المحطة، ولكن في هذه الليلة ذهب الهدوء، هناك خطوات غليظة قادمة، تدق على الأرض فيسري الصدى تحت البلاط الذي يغطي الرصيف. أحس «زيتون» أنه يعاني من كابوس، كان يختنق، لا يوجد هواء صالح للتنفس، فتح عينيه، رأى وجه رجل ضخم يحجب الضوء ويمنع الهواء، وسمع صوته يخترق أذنيه:

ـ انهض يا ولد.. انهض يا قذر.

جذبه الرجل من الركن الذي يختبئ فيه، وضعه تحت ضوء المحطة البارد، رأى «زيتون» وجهه أخيرا. آه.. أدرك أنه وقع في يد من لا يرحم؛ «الحداية» شخصيا؛ ضابط «أمن الدولة» الذي لم يكن يكف عن مطارداتهم، كانت له قدرة غريبة على اكتشاف أي مخبأ يلجئون إليه، وهاهو يصطاده.. أفلت من أمامه عشرات المرات، كان يقفز من أمامه مباشرة إلى النيل، أسهل الطرق وأصعبها، يظل في الماء حتى يبتعد، ولكنه وقع في قبضته الآن، لا يستطيع الإفلات، يسمعه وهو يقول من بين أسنانه:

ـ هل تحسب أنك تستطيع الاختباء مني؟ أستطيع أن أحضرك من قفاك في أي وقت.

قال «زيتون»: ورحمة أمي.. أنا لم أكن أختبئ منك.. يا..

صاح فيه الضابط وقد ازدادت غلظته: انطق يا حشرة.. ما هو اسمي؟

رد «زيتون» وهو يبكي: أنت الباشا.. الباشا الكبير.

أوشك أن يخطئ ويسميه «الحداية» .. كما يطلق عليه الجميع من خلف ظهره، فهو لا يغير لون ملابسه السوداء فقط، ولكنه ينقض عليهم فجأة من حيث لا يدرون، يخاف منه أولاد الشوارع مثله، وكذلك تجار المحال وأصحاب الورش وحتى السائرون في الطرقات، عاد «الحداية» يهزه بعنف وهو يصيح به:

ـ أعرف أنك مختبئ من الولد «مطوة» بعد أن علَّمت على وجهه، كيف واتتك هذه الجرأة يا حشرة؟ إنه يبحث عنك الآن، ولو وجدك فسيقتلك بالتأكيد.

توسل إليه «زيتون»: أرجوك يا باشا، لا تسلمني له.

قال «الحداية»: أنتما لا تساويان شيئا.. أستطيع أن أسحقك أنت وهو تحت حذائي.

كان «زيتون»على وشك البكاء: أتوسل إليك يا باشا، ضعني في السجن.. لا تسلمني له.

هدأ «الحداية»، وانخفض صوته قليلا: إذا نفذت ما سأقوله لك، فسأحميك منه.

قال «زيتون»: أبوس إيديك.. سأنفذ كل ما تقول.

مد «الحداية» وجذبه من ثيابه، أوقفه ودفعه للسير أمامه، أقدامه تضرب الأرض في قوة، تمزق سكون المحطة. كان الصدى مخيفا مثل كلماته، و«زيتون» لا يدري ماذا سيحدث له، ربما يجد «مطوة» واقفا خلف حاجز التذاكر .. ولكنه لم يكن هناك، كل الحواجز كانت مفتوحة على غير العادة. قاده الضابط إلى غرفة صغيرة، لم يكن «زيتون» قد رآها مفتوحة من قبل، فيها مكتب صغير، ومقعد وحيد، وصورة معلقة لرئيس الجمهورية وهو ينظر إليه غاضبا، جعلت «زيتون» يخاف أكثر، فوق المكتب توجد حقيبة صغيرة كحقائب التلاميذ.

وقف «زيتون» وهو يرتعد، جلس «الحداية» على الكرسي الوحيد، فتح الحقيبة ومد يده في داخلها. انتظر «زيتون» حدوث معجزة، أن يخرج الضابط يده وفيها طعام.. من أي نوع، وأن يعطيه له، ولكن يد الضابط خرجت وهي تحمل شيئا غريبا؛ صندوقا من المعدن، تبرز منه عدة أسلاك ملونة، يمسكه بحرص زائد، كأنه يخشى أن ينفجر في يده، يشير إلى زر موجود في أسفل الجهاز، يقول بصوت أقرب للهمس:

ـ هل ترى هذا الزر الأحمر؟ كل ما أريده منك هو أن تضغط عليه.. ضغطة واحدة فقط.

تقدم «زيتون» بحذر، مد أصابعه مرتعدا وهو يقول: هل أضغط عليه الآن؟

أبعد «الحداية» يده في سرعة وهو يهتف:

ـ ليس هنا يا غبي، وليس الآن، سيكون الجهاز داخل هذه الحقيبة، ستحملها على ظهرك وتخرج للميدان، الوقت فجر الآن، ولكن ما إن تشرق الشمس ويشتد الزحام، حتى تجلس في أكثر النقاط ازدحاما وتمد يدك داخل الحقيبة كأنك تبحث عن شيء ثم تضغط على الزر.. مفهوم.

دق قلب «زيتون»، شعر بالخوف، كأنه ثعبان بارد يزحف داخل جسده، قال:

ـ هل هي قنبلة؟ هل ستنفجر وتقتل الجميع؟

قال «الحداية» وقد نفد صبره:

ـ كلا ياحشرة.. إنها مجرد قنبلة صوت، ستصدر فقط صوتا مزعجا كأنه انفجار، نريد فقط أن نخيف هذه الحشرات التي تتظاهر حتى تترك الميدان.

كان يكذب، عرف «زيتون» ذلك في التو، بلع ريقه وقد أحس أن فمه شديد الجفاف،قال:

ـ وأنا .. ماذا سيحدث لي؟

قال «الحداية»: لا شيء.. بعد أن تضغط على الزر .. عليك أن تبتعد، سيأخذ الجهاز بعض الوقت حتى ينفجر، يمكنك أن تعود إلى هنا وسأتكفل بحمايتك.

هل سيعود حقا، أم إن الضابط قد اختاره بعناية لأنه لو مات فلن يسأل عليه أحد، ولن يأبه به أحد؟ قال فجأة: أنا جائع. كأنها رغبته الأخيرة، قال الضابط في ضيق: أهذا وقته؟ كل شيء مغلق الآن، عندما تعود سأحضر لك وجبة ساخنة من «الكباب».

كان يكذب أيضا، صاح «الحداية» آمرا:

ـ اسمع يا ولد.. لو حاولت خداعي فسأذبحك.. عيون رجالي في كل مكان، هل تفهم؟

قال «زيتون» في هدوء: متى سأذهب؟

قال «الحداية»: الآن.. لا يوجد وقت نضيعه، معظم هذه الحشرات ما زالت نائمة، ولن يشعر أحد بدخولك للميدان. هيا، اختر مكانا واحرص على عدم لفت الأنظار.

ماذا كان بيده أن يفعل، كان مرعوبا منه لدرجة الموت، حمل الحقيبة ووضعها على ظهره، أحس بها غاية في الثقل رغما أنها كانت فارغة إلا من الجهاز الصغير. سار منكس الرأس، كان أصغر من أن يتم تكليفه بهذه المهمة، ولكن من سيلتفت إلى ولد متسخ من أولاد الشوارع، قبل أن يصل إلى باب الغرفة، سمع صوت الضابط ينادي عليه وهو يلوح بإصبعه محذرا:

ـ تحذير أخير ياولد.. سأعثر عليك حتى لو ذهبت إلى آخر شلال.

الصمت يخيم فوق كل شيء، وحراس المترو نائمون وهم مستندون إلى الجدار. صعد درجات السلم، الباب الحديدي مفتوح، عمل الضابط حسابا لكل شيء، كانت السماء رمادية فيها بعض السحب السوداء، سار على أطراف الميدان، شاهد الخيام متكومة في خوف، مبللة من ندى الليل، والعديد من الشباب يجلسون على الأرصفة، مابين اليقظة والنوم. عبر الشارع المؤدي لحافة النهر، نظر إلى المياه الرمادية التي تنعكس عليها بقايا الأضواء. كانت الموجات الصغيرة ترتعد، تريد أن تبتعد عن الشاطئ، تبتعد عن «زيتون»، سمع الوشيش العميق للنهر:

ـ لماذا تقترب مني هكذا؟ أنا خائف منك.. السمك في داخلي يرتعد..والطحالب مفزوعة..حتى ورد النيل يريدك أن ترحل بعيدا.

أوشك «زيتون» أن يبكي، توسل: أنا خائف وجائع.

ظل النهر يحاول الانزياح، ترتطم مياهه ببعضها بعضا، تراجع «زيتون»، شعر أنه فقد صديقا، لا يوجد من يحدثه من أعماقه كما كان يفعل.

سمع صوتا صائحا في الميدان، كأنه يحذر الجميع من قدومه، لكنه كان فقط صوت آذان الفجر، يدعو الجميع لليقظة، خرج بعض الشباب من الخيام، تحرك الذين كانوا يجلسون في الخارج، ساروا جميعا على الأرض اللامعة بندى الليل، وسط بقايا الأحجار والقنابل الفارغة، تراقبهم الدبابات التي تقف في أنحاء الميدان. وجوه الثوار مرهقة وعيونهم مغمضة ولكنهم يرددون آيات القرآن في أصوات خافتة. قفز بعض الجنود من فوق الدبابات وانضموا إليهم، وبدأ بعضهم يتوضأ، والبعض الآخر يصب لهم الماء. سار «زيتون» دون أن يلتفت إليه أحد، كان قلبه يدق وهو يراقبهم، توقف أمام خيمة مليئة بالجرحى، بعضهم مستغرق في النوم على بطاطين مفرودة، يضعون ضمادات على رءوسهم، أو على أعينهم، أو يربطون أذرعهم إلى رقابهم، والبعض يتأوه في صوت خافت. امتلأ قلبه بالرهبة، فكر أنه سيبتعد عن هذه الخيمة بقدر المستطاع، فعند حدوث الفرقعة، لو كانت حقا مجرد فرقعة، لن يستطيع أي من هؤلاء الجرحى أن يهرب بعيدا.

جلس على الرصيف، بجانب صف من الأشجار الصغيرة المتشابكة، يستطيع أن يخبئ بينها الحقيبة دون أن يلاحظه أحد، تعالت التكبيرات، وقف الشباب جميعا في صفوف متلاصقي الأكتاف، أخفضوا وجوههم، وقف واحد منهم إماما في المقدمة وأخذ يتلو القرآن، انساب صوته العذب في فضاء الميدان، رائقا شجيا وفيه مسحة من الحزن، كانوا يبدون ضعفاء، لا يحملون الأذى لأحد، فلماذا يريد ضابط الأمن أن يخيفهم ويجعلهم يهربون من الميدان، إن لم يكن يريد قتلهم حقا؟ كَبَّروا وركعوا وسجدوا، لمسوا الأرض بجباههم العارية، كأن كل واحد منهم يحتمي في الآخر، يتحركون معا، يسجدون وينهضون في نفس الوقت. انتشرت حولهم دائرة من شباب آخر، يراقبون المداخل المختلفة للميدان حتى لا يباغتهم أحد، وتعجب «زيتون» من أنهم لا يؤدون الصلاة مثل البقية، ولكن دهشته زالت حين رأى الصليب مرسوما على ذراع واحد منهم.

أشرقت الشمس من مكان ما، وبدأ كثير من الأولاد والبنات في التوافد على الميدان، هل حانت اللحظة؟ هل يضغط على الزر الآن؟ فوجئ بفتاة تقف أمامه وهي تتأمله، هل قرأت أفكاره؟ هل تعرف ماذا ينوي أن يفعل؟ كانت أكبر منه، ربما في العشرين من عمرها، لم يكن جسدها ضخما، تلبس بنطلون جينز ولا تضع على وجهها أي زينة، تضع فقط نظارة طبية، وتجمع شعرها في خصلة واحدة للوراء. ارتج قلب «زيتون» وهي تمد يدها نحوه وهي تقول:

ـ لابد أنك جائع.. خذ.. تناول فطورك.

نظر إليها مترددا، لماذا تعرض عليه الطعام وهي لا تعرفه؟ عادت تقول:

ـ هيا.. مد يدك.. كلنا هنا إخوة.

مد أصابعه، وتناول منها لفافة الطعام، ابتسمت وهي تقول: بالهناءة والشفاء.

ابتعدت دون أن تسأله عن اسمه، ولا عن الحقيبة، ولا عما ينوي أن يفعله، واصلت توزيع الطعام على الآخرين، كانت اللفافة تحتوي سندوتش طعمية وسلطة، تقلصت معدته ونسي كل شيء، لم يتذكر إلا أن هذا الطعام جاء قبل أن يغمى عليه بلحظة واحدة. مع كل قضمة كان يحس بالحياة وهي تعود إليه، شعر بالحزن لأن «السندوتش» انتهى سريعا، لم يكن هناك شبع كامل، هل يكتفي بهذا القدر من الطعام، أم يضغط على الزر وينتظر «الحداية» الذي وعده بالكباب؟ ارتفعت الحناجر بالهتاف: «الشعب.. يريد تغيير النظام»، أصوات مليئة بالحماس، شباب وبنات، بدأت جماعات منهم تحمل العلم الثلاثي الألوان وتطوف في الميدان، ولكن «زيتون» ظل جالسا في مكانه، ينظر إلى الحقيبة ويتساءل: هل حانت اللحظة؟

لا وجود للشرطة، ورجال الجيش واقفون على الدبابات لا يحاولون التدخل، ربما كان هذا هو المكان الآمن الذي يبحث عنه، لولا أن «الحداية» مازال يربض بالأسفل. تسلل إليه بعض

من الحماس الذي يسود الجميع، سيؤجل الضغط على الزر بقدر ما يستطيع، ولكن حدث شيء مفاجئ، ارتفعت ضجة مفاجئة من بعيد، صيحات من الرعب مختلطة بأصوات الحيوانات، صهيل خيول ورغاء جمال. اندفع حشد من الشباب في اتجاهات مختلفة، يبحثون عن شيء يحتمون به، سادت حالة من الفزع في أرجاء الميدان، هل فجر أحدهم قنبلة أخرى؟ تعثر البعض وهم يتراجعون، وقفز البعض الآخر فوق الحواجز المعدنية، ظهر فجأة قطيع من الحيوانات، اقتحمت الزحام، خاضت في الأجساد تحاول أن تشقها، تندفع الجمال والخيول، لا تبالي بمن يسقط تحت سيقانها، يمتطي ظهورها ركاب هيئتهم غريبة، يلوحون بالسياط والعصي والسيوف، في حالة من الهياج والسعار، يضربون ما حولهم بعنف، ارتفعت صيحات الشباب، أخذت الحيوانات تركل كل من يقف في طريقها دون تمييز. اكتست الوجوه بالدم، وانكمش «زيتون» في مكانه، القنبلة التي يحملها لا تقاس شيئا بهذا الاندفاع الحيواني، هل ما يحدث من تدبير «الحداية» أيضا، أم إن الأنفاق الموجودة تحت الأرض ممتلئة كلها بهذا النوع من الضباط؟

أفاق الشباب من صدمة الفزع الأولى، جمعوا صفوفهم وتقدموا، لم يعد عنف الحيوانات قادرا على إفزاعهم. تقدم واحد منهم، قفز في الهواء ببراعة وانقض على أحد المهاجمين، لم يبالِ بالحصان الذي يركبه ولا بالسوط الذي يهوي به. جذبه من خاصرته وأسقطه على الأرض، وقف الحصان وحيدا لا يدري ماذا يفعل بعد أن فقد

راكبه، بينما انقض بقية الشباب على المهاجم؛ فقد قوته وجبروته وأصبح فريسة للركل والضرب،دارت الحيوانات حول نفسها، وسقط المزيد من الجرحى، كان راكبوها يفكرون في العودة لإنقاذ زميلهم، ولكن صفوف الشباب تماسكت، تدافعت من حولهم، لاحقتهم بالصياح.. قتلة .. خونة..دب الذعر في نفوس الحيوانات والذين يركبونها، أصبحوا محاصرين، لم يعد الشباب يخافون من الجمل الذي يرغو، ولا الحصان الذي يصهل، ولا العصي والسياط والسيوف، أصبح المهاجمون يبحثون عن طريق للهرب، وجدوا فجوة بجانب إحدى الدبابات، أسرعوا بالمروق منها، ونظر إليهم الجندي الواقف على الدبابة في بلاهة دون أن يفهم حقيقة ما يجري، وصاح أحد الشاب وهو يمسح الدم من على وجهه:

ـ انتبهوا..ربما يعاودون الكرة مرة أخرى.

رد عليه آخر: إنهم يريدون طردنا من الميدان بأي طريقة، ويجب ألا نسمح لهم بذلك.

بدأت عملية إنقاذ الجرحى،اندفع العديد من الشباب الذين لم يصابوا، حملوا الأجساد العاجزة عن الحركة، تركوا بقعا من الدم فوق الأسفلت. نظر إليها «زيتون» مرعوبا، تذكر الدم الذي انبثق من وجه «مطوة» حين أخذه على غرة، تماما كما فعلت هذه الحيوانات مع الشباب، ولكن بعد كل ما حدث لهم، هل يجب أن يضغط على

الزر؟ هل ينقصهم المزيد من الدم والموت، أم إن ما حدث لهم كان كافيا؟ توافدت الدراجات البخارية، حملت الجرحى وأسرعت مبتعدة، ارتفع صوت استغاثة من مكبرات المسجد:

ـ نحن في حاجة للدماء، كل من يجد في نفسه القدرة فليأتِ للتبرع.

ظل «زيتون» ملتصقا بالرصيف، شل الخوف حركته، فكر أن هؤلاء الشباب لن يتحملوا هجوما ثانيا. لم تكن هناك فرصة للاختباء، وبالفعل جاء الهجوم الثاني سريعا، من نفس المكان. امتلأت السماء فجأة بأشياء متطايرة، مطر غزير من الأحجار وكريات اللهب، سقطت في كل مكان، وعلى رءوس الجميع، أصابت إحداها رأس أحد الشباب، شاهده «زيتون» يترنح ساقطا، وصاح واحد ثانٍ مفزوعا:

ـ «البلطجية» يهاجموننا.

وصاح آخر: يجب أن نضع حواجز تحمينا منهم.

اشتدت الهجمة، زادت كثافة الأحجار، أحس «زيتون» أنه لن ينجو أحد من الهجمة الجديدة. كان الشباب يخوضون معركة يائسة، ولكن لم يكونوا ينتوون التراجع، بدءوا يبحثون عن أحجار يردون بها الهجوم، وصاح واحد: فلنكسر الأرصفة.

هل يسمح الوقت بذلك؟ سيجتاح «البلطجية» الميدان في أي

وقت، هل يغضب «الحداية» لو فجر فيهم القنبلة وهم قادمون؟ المؤكد أنهم أتباعه وسيغضبه ذلك، عليه أن يبحث عن مكان آخر. بدأ الشباب يبحثون عن حواجز يسدون بها الطريق، ألواح من القصدير، عوارض من الخشب، وبراميل، وحواجز المرور، كانت حركتهم محمومة والخطر يقترب من رقابهم،، ظهر صف من بنات محجبات، لم يبالن بالطوب المتساقط، اندفعن يخلعن أحجار الرصيف، ويقمن بتحطيمها لقطع صغيرة ويناولنها للشباب. انتفض «زيتون» مذعورا عندما سقطت كرة من النار بجانبه، احتضن الحقيبة رغما عنه، أبعده أحد الرجال وهو يقول:

ـ ابتعد.. انجُ بنفسك.. هذا هو اليوم الأخير لنا في الميدان.

رد عليه شاب أصغر سنا: سأموت قبل أن يرغموني على مغادرة مكاني.

تقدم الشاب للأمام غير مبال بالأحجار أو النيران، ارتفعت أصوات المهاجمين واقتربت خطاهم، تراجع «زيتون» ولكنه ظل واقفا حائرا، لا يستطيع العودة إلى النفق، ولا إلى مكانه القديم، ولو ظل واقفا هكذا فسيموت تحت الأقدام، أحس بيد تأخذ يده وتسحبه بعيدا، الفتاة نفسها التي أعطته الطعام في الصباح، صاحت به:

ـ لماذا تقف هنا؟ هذا خطر.. يمكن أن تدور مجزرة الآن.. تعالَ معي.

أخذت تعدو، وهو يعدو خلفها، كانت تحمل بيدها الأخرى حقيبة من القماش، التفتت إليه، وهي تقول:

ـ بالمناسبة.. اسمي «رضوى»، هل أنت هنا وحدك؟ أليس لك أهل؟

قال في اختصار: لا أهل ولا بيت.

لم يتوقفا عن العدو، دخلا إلى شارع جانبي متفرع من الميدان، نظرت إلى الحقيبة التي يحملها، قالت: ماذا في هذه الحقيبة؟ أدوية؟

قال «زيتون»: كلا.

قالت الفتاة في أسف: خسارة، نحن في أمس الحاجة إلى الدواء، سنذهب إلى المستشفى الميداني، ربما تستطيع أن تقدم المساعدة، أتوقع أن يكون عدد الجرحى هائلا.

لم يكن مستشفى، كان مسجدا صغيرا عتيقا، دخلت «رضوى» دون تردد ودون أن تخلع حذاءها، تردد «زيتون» قليلا ثم دخل وراءها، فوجئ بالمكان مليئا بالجرحى، ممددين على الأرض، يملئون المساحة بين الأعمدة وبجوار المنبر وداخل القبلة. وضعت «رضوى» الحقيبة التي كانت تحملها على منضدة في أحد الأركان، أخذت تخرج منها أدوية ولفات من الشاش والقطن. تأمل «زيتون» المكان في فزع، لم يتصور أن عدد الجرحى بهذه الكثرة، أربطة على الأعين، وعصابات حول الرأس المشجوجة، وبطونا مفتوحة يحاولون إغلاقها، الحركة لا تهدأ، كل لحظة تمر تأتي بالمزيد من الجرحى. حملت «رضوى» الغيارات والمطهرات وأخذت تعدو

خلف الأطباء، انتهز «زيتون» الفرصة وأخفى الحقيبة تحت منضدة الأدوية، لن يستطيع أن يستخدمها، لا الآن ولا في هذا المكان. وجد نفسه دون أن يدري يندمج في عملهم، يشارك في حركة الإنقاذ المحمومة، كانت حياة الجرحى معلقة بشعرة دقيقة، والموت يقف على الباب، كانوا كلهم يسابقون الزمن، يحاولون منع الموت من الدخول، أخذ «زيتون» يتحرك سريعا، يلبي الأوامر التي يلقيها عليه الأطباء، كانوا مرهقين لا يستطيعون أن يلتقطوا أنفاسهم، معاطفهم البيضاء ملوثة بالدم، يحاولون تخييط الجروح المفتوحة وأن يوقفوا نزيف الدم، لم ينقطع سيل المصابين.

حل مساء حزين على الجميع، لا وقت لتناول الطعام أو الراحة، ولا وقت حتى للحزن، لم تتوقف معركة الميدان ولا أفواج الجرحى، كل جريح يحكي عن جانب مما يحدث في الخارج، لم ينجح «البلطجية» في تحقيق غرضهم، تصدى لهم شباب من «الألتراس» الذين كانوا يشجعون فرق الكرة، استخدموا خبرتهم في تنظيم الصفوف، وأقاموا الحواجز لصد «البلطجية»، ولكن الأخبار السيئة لم تتوقف، المهاجمون مازالوا يحاصرون الميدان بكريات اللهب، كانت تتساقط على الشباب من العمائر التي تحيط بهم، هذه أسوأ ليالي الثورة. دخل الموت أكثر من مرة إلى أروقة المسجد الصغير، في كل مرة يختطف روحا شابة، ينخرط الجميع في البكاء لبعض الوقت، ولكنهم سرعان ما يعودون لمواصلة العمل، الجروح التي تنزف لا تنتظر، وبقايا الحياة الواهنة يمكن أن

تهرب في لحظة، لم يكن الموت قريبا من «زيتون» كما كان في مثل هذه اللحظات، لم يدرِ كم عدد الذين كفوا فجأة عن التأوه وأغمضوا عيونهم وسكنت أجسادهم، لم يدرِ كم مرة شارك الجميع في قراءة الشهادتين ومسح الدموع التي تملأ عينيه. كان منهكا وحزينا، ارتمى خائر القوى بجانب الجدران، جلست «رضوى» بجانبه، قالت في صوت هامس:

ـ هذه الليلة الطويلة سوف تكون فيها نهايتنا، أو بداية حياة جديدة.

أغمض «زيتون» عينيه، وغرق في ظلمة حزينة.

سار «زيتون» وسط الأحجار المتكسرة التي تملأ الميدان، البرد قارس وهو يرتعد، والمصابيح تشع فراشات مضيئة، تذوب في برد الليل، وكريات اللهب تتساقط من العمائر المحيطة بالميدان، تصطدم بالأسفلت و تنتشر في دوائر حارقة، ألسنة لهب لا يقدر أحد على إطفائها، تشتبك في أغصان الشجر وعوارض الخشب، تتصاعد أدخنة كثيفة، تحاصر الثوار الواقفين في دوائر متباعدة، من بعيد المهاجمون يبدون مثل أشباح سوداء، خفافيش بلا ملامح لا تكف عن الحركة، توقف «زيتون» وهو يكتم أنفاسه. حدث أمر غريب، في صمت، ودون أن ينتبه أحد، ظهر ماء النهر لامعا من خلال فجوة ضيقة بين المباني، كيف أصبح النهر قريبا فجأة؟ كيف ارتفعت المياه وعلت الشاطئ؟ شاهد الموجات الصغيرة وهي تنساب بهدوء، تواصل التمدد، ولا تكف عن التقدم، أي معجزة جعلتها

تصعد من قاع النهر الغائر؟ تزحف على الأسفلت، تدور حول البنايات، تغمر الشقوق، ثم تبدأ في الانتشار على وجه الميدان في تمهل وإصرار، شهق «زيتون» حين أحس بالموجات وهي تلامس أقدامه، ورأى أسماكا فضية صغيرة تقفز عاليا ثم تعاود الغوص في الماء، كأنها تدل المياه على طريقها وسط حواجز الميدان. هتف «زيتون» محدثا الموج: أنا فرحان لأنك لم تعد خائفا مني، تدافعت الموجات وأحاطت به، لم تبدُ خائفة منه ولا من أحد، حتى «ورد النيل» جاء في صفوف متتابعة، تعلو وتنخفض على سطح المياه، أوراقها أشبه بقلوب صغيرة، في كل قلب منها زهرة بيضاء، واصلت المياه ارتفاعها، مصدرة غمغمة خفية كأنها تحدث نفسها، بدأت تحاصر دوائر اللهب، تغمرها وتحولها إلى برد وسلام، ازدادت قوة الأمواج وأصبحت قادرة على إزاحة الأحجار والطلقات الفارغة، أذابت بقع الدم وآثار البارود، غسلتها تماما، اكتسى الأسفلت بلمعة سطح النيل، طبقة رقيقة وملساء، تنعكس على صفحتها وجوه الثوار المتعبين والقمر البعيد والنجوم المتناثرة في السماء. يتراجع المهاجمون في خجل، وتنطفئ كريات اللهب عند سقوطها، تنشق الظلمة عن الضوء الشاحب، الفجر يشقشق، وطيور استيقظت مبكرا، انطلقت تطوف الميدان وهي تحرك أجنحتها، ظهرت عصافير النيل أخيرا، تصدر حفيفا كأغنية خافتة، لم يعد هناك أثر للمحرقة، وابتلع الماء النفايات وبقايا البغضاء والشرور، قال «زيتون»: لن أفعل ما يغضبك مني.. أقسم على ذلك.. تحركت أمواج النيل وبدأت في

التراجع، انحسرت من حول المباني العالية وانسحبت من الحواري والشقوق الضيقة لتعود لمجراها الأصلي.

.. فتح «زيتون» عينيه، التفت إلى «رضوى» الجالسة بجانبه، قال:

ـ لقد أصبح الميدان آمنا.

ازداد الضوء وبدأ يتدفق من نوافذ المسجد، بدا كأن الجميع قد سمعوا كلمات «زيتون»، ساروا نحو مصدر الضوء وهم لا يصدقون أنهم مازالوا على قيد الحياة. نهضت «رضوى» وبحثت في الأكياس الموضوعة على المنضدة، كانت مجهدة متشعثة الشعر، وعيناها شديدتي الاحمرار، قدمت له باكو من «البسكويت» وهي تبتسم في شحوب:

ـ هذا من أجل بشارة الصباح الجديد ..خذ غَيِّر ريقك.

بدأت الأصوات القادمة من الخارج في الارتفاع، الحياة تعود للميدان، أصوات الهتافات تعلو دون أن يصاحبها صوت القذائف أو رائحة الغاز، تتحول إلى هدير يرج الميدان، وقف الأطباء مندهشين وفتح الجرحى عيونهم، هتافات الثورة التي تخيلوا أنها قد ماتت في أثناء الليل، بعثها الصباح من جديد. خرجت «رضوى» من المسجد، سارت كالمسحورة، تبعها «زيتون» وعدد من الأطباء، حطت عليهم شمس يناير دافئة بعد ليلة باردة من الخوف، وظهر الميدان أمامهم ممتلئا بالبشر والرايات الثلاثية الألوان واللافتات والشعارات، ظهرت وجوه في الميدان لأول مرة، هتفت «رضوى» في دهشة:

ـ من أين جاء كل هؤلاء الناس؟

قال طبيب كان يقف بجوارها:

ـ إنهم قادمون من كل مكان في مصر، نحن لم نمت بالأمس، ولكن الخوف هو الذي مات.

اختفت وجوه شباب الثورة المتعبة وسط الزحام، أناس من مختلف الأعمار، شيوخ ونساء وأطفال صغار، أسر كاملة، آباء يحملون أطفالهم الرضع، فلاحون بجلاليب وعمائم ملفوفة، عمال يحملون لافتات عليها أسماء مصانعهم، مدرسون وطلبة، فنانون يحملون آلاتهم الموسيقية، يقفون على منصة وهم يغنون للجميع، كلهم جاءوا، مثلما جاءت أمواج النهر؛ لإنقاذ شباب الثورة من الموت حرقا، لم يرضهم ما فعله البلطجية والشرطة السرية، ولا الهجوم بالحيوانات والأحجار والنيران، ضحكت «رضوى» للمرة الأولى بصوت عال:

ـ لم نعد وحدنا، لن يستطيعوا قتلنا بعد الآن.

زال الخطر مؤقتا، استأذنت «رضوى» الأطباء حتى تغادر الميدان لعدة ساعات، ستعود إلى بيتها ليطمئن والداها أنها مازالت على قيد الحياة. خاف «زيتون» أن يتجول بدونها في الميدان، ظل داخل المسجد، ترك الحقيبة في مكانها، مخفية عن الأعين، وحتى الذين رأوها لم يلمسوها، ربما اعتقدوا أنها تخص أحد المرضى، أو أحد الشهداء، كان المسجد المليء بالجرحى، هو أكثر الأماكن أمنا التي عرفها في حياته، ولكن هل يمكن أن يدوم؟

عادت «رضوى» بعد ساعات بالفعل، كانت تحمل طعاما والمزيد من الأدوية والغيارات، وأيضا بعضا من ملابس أخيها الصغير، قدمتها «لزيتون» المندهش. ذهب إلى مكان الوضوء في المسجد، تخلص من الأوساخ ومن ملابسه المتهرئة، ولدهشته كانت الملابس الأخرى مناسبة لها تماما. شعر أنه قد أصبح «بني آدم» جديدا، لا ينتمي للشوارع الواسعة، ولا لحالة الخوف والمطاردة التي لازمته طوال حياته، قالت له «رضوى» مبتسمة:

ـ أستطيع الآن التعرف على ملامحك بوضوح.

سار معها للمشاركة فيما يحدث بالميدان، ولكنها كانت مازالت تتأمله، عادت تسأل:

ـ أليس لك بيت ترغب في العودة إليه.. أب.. أم.. أستطيع أن أساعدك في العودة إليهما؟

هز رأسه، كانت هي أول شخص يسأله عن نفسه، قال:

ـ لا يوجد شيء، ولست وحدي في ذلك .. هناك آلاف الأولاد مثلي، ليس لهم أي شيء، وجدنا أنفسنا في الشارع، وسنموت فيه أيضا.. وسيكون هذا قريبا.

توقفت «رضوى» ونظرت إليه مذهولة: لماذا تقول هذا؟

قال في بساطة: هذا ما يحدث دائما.. كل رفاقي في الشارع يموتون مبكرا.

صمتت رضوى قليلا، نظرت إلى الجموع التي تتحرك من حولهما، قالت:

ـ من أجل هذا خرجنا للميدان؛ حتى نعيش جميعا أعمارنا كاملة.

كانت هناك فرقة موسيقية فوق منصة عالية، تغني عن الغد القادم الذي سيحمل الحرية للجميع. حاولت «رضوى» أن تغير الموضوع، أشارت إلى إحدى اللافتات وهي تقول:

ـ هل تعرف ماذا تقول هذه اللافتة؟

أخفض رأسه، قال عدة كلمات لم تسمعها، هتفت به: ماذا؟ لم أسمع.

اضطر «زيتون» أن يرفع صوته قائلا: لا أعرف القراءة ولا الكتابة.

فكرت «رضوى» في نفسها.. أنا فعلا غبية.. إنه لم يحصل على أي شيء من ضروريات الحياة .. فكيف يدخل مدرسة؟ غرقت في التفكير حتى ظن أنها غاضبة منه. ازداد الزحام من حولهما، قبضت على يده حتى لا يضيع منها، قالت فجأة في إصرار: تعال معي. سارا معا إلى ركن من الميدان أقل ازدحاما، وجدا هناك رجلا شعره الأشعث يخالطه الشيب، يتأمل ما يدور أمامه من خلف نظارته الطبية الصغيرة، تبدو على وجهه ملامح الجدية، يقف متحفزا وهو يراقب بعض العمال والشباب؛ البعض منهم يدقون دعائم حديدية

في الأرض، ويقوم البعض الآخر بشدها بواسطة حبال من الصلب حتى تظل قائمة، اقتربت «رضوى» من الرجل وهي تقول:

ـ ماذا يحدث يابا شمهندس ممدوح؟

أشار الرجل إلى العوارض الحديدية وهو يقول:

ـ كما ترين، طلب مني شباب الثورة أن أضع لهم شاشة تلفزيونية عملاقة، يريدون أن يتابعوا منها الأحداث، وكما تعرفين.. كلمات الثوار أوامر بالنسبة إليَّ.

أشار إلى شاشة ضخمة ملفوفة بطبقات من البلاستك المنفوخ، يقوم بحراستها جمع من الشباب كأنها كنز ثمين، قالت:

ـ وإذا قام رجال أمن الدولة وسرقوها في الظلام؟

قال: لن يجرءوا على ذلك، سنتظاهر تحتها بالنهار وننام بجوارها في الليل.

قالت «رضوى»: مادمت تنفذ أوامر الثورة فنحن في حاجة لخدمة أخرى، نريد خيمة كبيرة بعض الشيء.

قال المهندس ضاحكا: ماذا؟ هل تريدين أن تؤجريها مفروشة؟

ضحكت «رضوى» وهي ترد عليه:

ـ كلا.. سأحولها إلى فصل لتعليم القراءة والكتابة، وهذا يعني أنني أيضا في حاجة إلى سبورة وطباشير وبعض الأقلام والكراريس.

نظر المهندس إليها مستغربا، كأنه يتساءل إن كانت جادة في طلبها أم لا، قال متبرما:

ـ هل هذا وقته، نحن في ثورة، هناك عشرات المطالب الأكثر أهمية.. أدوية .. وغذاء.

قالت «رضوى» في إصرار: وتعليم أيضا.. من المهم أن يقرأ الجميع شعارات الثورة.

نظر المهندس إلى «زيتون» كأنه قد عرف سبب هذا الطلب الغريب، صاح فجأة منبها الشباب الذين كانوا يشدون أسلاك الصلب أكثر مما ينبغي. قفز بسرعة وأخذ يساعدهم على تثبيت الأسلاك في موضعها، بدا أنه انشغل عنهما تماما، ولكن «رضوى» ظلت واقفة تنتظر في صبر، وعندما انتهى من تثبيت السلك الأول التفت نحوهما، رأى «رضوى» وهي تعقد ذراعيها على صدرها، لم يبدُ عليها أنه يمكن أن تتراجع، أشار إليها برأسه وهو يقول:

ـ في رأسي ألف طلب الآن، سأفكر فيما تريدين، ولكن ليس الآن.

وانهمك مع بقية الشباب في تثبيت السلك الغليظ على الجهة الأخرى، أخذت «رضوى» «زيتون» من يده وسارت به مبتعدة، ولكن «زيتون» ظل يتابع حركة الرجل التي لا تهدأ، على الرغم من كبر سنه وشعره الأشيب، كان يتمتع بحيوية كبيرة، سأل «رضوى» في دهشة: من هذا المهندس؟

قالت «رضوى»: إنه ممدوح حمزة.. واحد من أكبر مهندسي مصر.

قال «زيتون»: ولكن سنه كبيرة على هذا الجهد الذي يقوم به.

ردت «رضوى» ضاحكة: إنه واحد من صناع هذه الثورة، وهو لم يعد كبيرا.. لقد أعادت له الثورة الشباب؛ لذلك يبذل جهدا كبيرا حتى تنجح، على الأقل ليحتفظ بشبابه.

دخلا معا وسط الزحام، شاركا في الهتاف مع الجميع، وتأمل «زيتون» اللافتات المرفوعة في كل مكان، هل سيتمكن يوما من قراءة هذه الحروف المستديرة الغريبة؟

في اليوم التالي كانت الحقيبة مازالت في مكانها، ولم يعد هناك مصابون جدد، وهدأ العمل داخل المسجد، ومرة أخرى سار مع «رضوى» إلى منطقة الخيام في وسط الميدان، دخلا إلى خيمة جديدة، كانت هناك سبورة خضراء اللون تتصدر المكان، بجانبها علبة مليئة بالطباشير الملون، وبعض الكراريس وأقلام الرصاص المبرية، وحتى الأرضية كانت مفروشة بحصر من البلاستيك منقوش عليه طيور بأجنحة مفرودة، تشبه عصافير النيل. صاح «زيتون» من الدهشة، تحقق كل ما طلبته «رضوى» تماما، كان هذا المهندس حقا صانعا للمعجزات، دون كلمة وجد نفسه يجلس على الأرض ويتناول إحدى الكراريس، وعلى الرغم من الضجة التي كانت تتعالى في الخارج، فإنه سمع «رضوى» بوضوح وهي تكتب بضعة أحرف ملتوية وتقول:

ـ «ارحل» هذه أشهر كلمة ستجدها موجودة في معظم اللافتات، نحن نخاطب الرئيس الذي جثم على صدورنا لمدة ثلاثين عاما، ونطالبه بالرحيل.

بدأ الدرس الأول، ولكن البداية كانت صعبة، لم تطاوعه أصابعه على كتابة الحروف الموجودة على السبورة، ولكن «رضوى» كانت صبورة، ظلت ترشده حتى لانت الأصابع المشدودة ببطء. بدأ يقلد شكل كل حرف، حرف الألف يشبه «المخبر» الذي يقف منتصبا وهو يرصد حركتهم، والراء مثل الملعقة الفارغة من الطعام، والحاء مثل بطن ممتلئ وهذا نادر، واللام كصنارة يحلم بأن يصطاد بها كل أسماك النهر. من خارج الخيمة تعالت هتافات تطالب الرئيس بالرحيل، خيل إليه أن كل هذه الآلاف تردد الدرس الأول معه. فرك «زيتون» عينيه مندهشا حين خرج من الخيمة، استطاع أن يقرأ الكلمة بوضوح مكتوبة فوق مئات اللافتات المرفوعة في الهواء؛ مكتوبة بطرق وألوان مختلفة، ولكنها الكلمة نفسها، وحتى عندما ظهر الرئيس أخيرا على شاشة التلفزيون العملاقة في وسط الميدان، قال هو أيضا إنه سيرحل، ولكن ليس الآن، ربما بعد عدة أشهر، ولم يعجب هذا أحدا في الميدان، أخذوا يرفعون الأحذية عاليا ويهتفون في صوت هادر: «ارحل.. ارحل».

لم تعد «رضوى» هي معلمته الوحيدة، انضم إليها بعض شباب الثورة، تبادلوا معه النكات حول الشعارات الضاحكة التي يرفعها

الناس، ثم أخذوا يعلمونه كيف يقرؤها، ولم يعد «زيتون» هو التلميذ الوحيد، ودون أن يدري كيف انتشر الخبر، فوجئ بطفل آخر يجلس بجانبه، يمسك الكراسة وينظر بشغف إلى السبورة الخضراء، جاء المهندس حمزة، وألقى نظرة على المكان ثم انصرف دون كلمة، ثم جاء طفل ثالث، تعرف إليه «زيتون»، كان واحدا من الرفاق الذين ينامون تحت جسر النيل، ظل عدد الأولاد يرتفع، امتلأت الخيمة بالوجوه الجائعة، ولكن اهتمامها كان أكثر بمحاولة تقليد الحروف الموجودة على السبورة، وتوالى المعلمون. نقل الشباب حماسهم من الميدان إلى داخل الخيمة، حولوها لمدرسة حقيقية، تواصل إعطاء الدروس لمزيد من الأولاد بلا توقف، واضطر المهندس حمزة أن يأتي حاملا المزيد من الكراريس وعلب الطباشير، و«السندوتشات» أيضا.

وعندما يختفي الضوء يصبح الميدان باردا، ويقل زحام الناس، يبقى شباب الثورة، يوقدون نارا للتدفئة، يجلس حولها الأولاد والبنات، يندس «زيتون» بينهم، يسمع مناقشاتهم بينما يصل إليه صوت الغناء القادم من بعيد، تظهر النجوم بعيدة وغاية في الصفاء. ينام البعض ويظل الآخرون ساهرين ليحرسوا البقية، إنها لحظة السحر التي لم يتخيل «زيتون» أن يعيشها، كان قد وجد أخيرا البيت الذي حلم به طويلا، فيه أكثر من أب وأكثر من أم، وعدد لا حصر له من الإخوة والأخوات. لم يكن يكف عن الطواف في الميدان؛ ليطمئن على عائلته الكبرى، وليحاول فك طلاسم اللافتات، أصبح للحروف الملتوية معنى، أصبح العالم كله له معنى.

في تلك الليلة كان «زيتون» قد تعلم الكثير من الحروف، وأحس بحاجته لأن يرى النهر، سار مبتعدا عن زحام الميدان، سار بجوار المبنى المحترق الذي كان يحتله الحزب الحاكم. اللون الأسود مازال يغطي جدرانه ورائحة الحريق تهب من داخله، وينام صف من الغربان على نوافذه. منذ أيام قليلة كان يخاف من الاقتراب منه، عبر الشارع متوجها ناحية النهر، توقف أمام الأمواج التي تتراقص عليها الأضواء، كأنها عيون الماء الرقراقة تحدق فيه، ملأ صدره من الهواء البارد، أحس به يملأ جسده كأنه يبعث فيه حياة جديدة، قال:

ـ أنا الآن أتعلم، سأصبح شخصا مختلفا، سأجد عملا، ولن أعيش في الشارع بعد الآن، هناك من يقدم لي يد المساعدة، للمرة الأولى يوجد من يهتم بي.

تحركت الأمواج في دوائر متتابعة، هل هي غاضبة منه؟ سمع الصوت الذي يعرفه يأتي من أغوار بعيدة:

ـ ابتعد.. ارحل سريعا.. أنت في خطر.

أحس «زيتون» بالرهبة، لماذا يحذره النهر هكذا؟ تراجع للوراء، ولكنه أحس بشيء صلب مدبب ينغرس في ظهره. انتفض من الألم، وحاول الابتعاد، ولكن ذراعا قوية التفت حول عنقه، ضغطت عليه بعنف، وسمع صوتا من الخلف:

ـ أين ستذهب يا ملعون؟ هل كنت تحسب أنك ستفلت مني؟

كان هذا صوت «مطوة»، باردا يبعث بالرعدة في العروق، خاف «زيتون» أن يتحرك حتى لا تغوص السكين في ظهره أكثر، سمعه يعاود القول:

ـ لو صرخت أو أصدرت صوتا؛ فستكون هذه آخر لحظة في عمرك.. فاهم.

حرك «زيتون» رأسه بالموافقة، أنزل «مطوة» ذراعه، واستدار «زيتون» ببطء، أبعد ظهره عن طرف السكين، كان الجرح يؤلمه، ولكن خوفه كان أكبر. وجه «مطوة» مازال على وساخته القديمة، تطل منه عيناه الغاضبتان، التأم الجرح الذي كان في وجنته، ولكن آثاره ظلت موجودة، ازداد طولا ونحافة، ومازال على نفس قسوته، لم يعطه فرصة، وضع طرف السكين على عنقه مباشرة، وهو يقول من بين أسنانه:

ـ هل ترى وجهي؟ أثر الجرح الذي فعلته بي مازال باقيا، غدرت بي وهربت، لو بقيت ثانية واحدة لمزقت جسدك كله.

لم يحاول «زيتون» أن يتحرك، جف ريقه، قال وهو يعرف أن ما سيقوله دون فائدة:

ـ ما فات مات .. فلننسَ ما حدث، ولنعدْ صديقين.

زادت هذه الكلمات من غضب «مطوة»، قال من بين أسنانه:

ـ ربما بعد أن أقتلك نصبح صديقين، أما الآن فعليك أن تسير

أمامي دون كلمة، ستكون سكيني في ظهرك دائما، أي محاولة للهرب سأغرسها لنهايتها.

لم يجد «زيتون» بدا من السير أمامه، لم يوجهه «مطوة» إلى المبنى المحترق كما كان يتوقع، ولكن دفعه في اتجاه الميدان، هل يمكن أن يراه بعض من شباب الثورة وينقذوه؟ ولكنه واصل دفعه في اتجاه الفتحة المؤدية لمدخل «المترو»، كان يستدرجه إلى الداخل، حاول أن يتراجع ولكن طرف السكين عاد ينغرس في ظهره، وسمع صوته يهتف مصرا: انزل.. لابد أن القميص الذي يلبسه قد أصبح مثقوبا وملوثا بالدم. هبط الدرج، كانت المحطة خالية، تردد صدى خطواتها في الطرقة الممتدة، هبطا درجا آخر في اتجاه الرصيف، وصاح «مطوة» بصوته البارد: ادخل هنا.

كانت هي الغرفة نفسها التي دخلها من قبل، و«الحداية» بذاته يجلس خلف المكتب، لم يتغير شيء، غير أن صورة الرئيس على الجدار أصبحت أكثر غضبا. تراجع «مطوة» إلى خارج الغرفة، تركه وحيدا في مواجهة الضابط، أدرك «زيتون» أنه لن يخرج حيا. نهض «الحداية» من خلف مكتبه، سار نحوه في صمت، تأمله في نظرة حانقة جعلته ينتفض، استدار «زيتون» وحاول أن يعدو هاربا، ولكن الضابط أسرع وأمسكه من قفاه، وبحركة واحدة رفعه عاليا في الهواء ثم تركه يهوي به على الأرض. ارتطم جسد «زيتون» بالبلاط الصلد، انتشر الألم في كل أنحاء جسده، تمنى أن يفقد وعيه حتى

لا يشعر بما سيحدث له، ولكن ركلات الضابط تواصلت، سمع صوته يصرخ:

ـ أنت أيها الحقير، تجرؤ على تكسير أوامري؟ هل كنت تحسب أني لن أصل إليك وأسحقك كالحشرة؟

سحب «زيتون» جسده، تكوم في الركن محاولا أن يبعد عن طرف الحذاء المدبب، قال باكيا: أنا تحت أمرك يا باشا.

لم يخفف هذا من غضب الباشا الذي عاد يركله وهو يصرخ:

ـ لماذا لم تضغط على الزر يا حيوان؟

حاول «زيتون» أن يحمي نفسه من سيل الضربات، لم يجد شيئا، كان «مطوة» خارج الغرفة ينظر إليه في شماتة، حاول «زيتون» أن يجد أي مبرر، قال:

ـ سامحني يا باشا..كانت هناك خيول وجمال وطلقات رصاص، اعتقدت أنه سيقوم بالواجب، وكان هناك الكثير من القتلى فشعرت بالرعب.

ازداد غضب الضابط:

ـ كان عليك أن ترتعب مني أولا؛ لأنني قادر على أن أسحقك. هل تحسب أن هذه الحشرات التي تملأ الميدان قادرة على حمايتك؟ غدا سنكنسهم ونلقي بهم جميعا في القمامة، سنعود لنصبح أسياد البلد من جديد، هل تفهم؟

ورفع قدمه ليركله من جديد، ولكن «زيتون» هتف متوسلا:

ـ كفى يا باشا..عظامي تكسرت.. سأفعل كل ما تريد، هذه المرة سأنفذ كل ما تقوله.

أنزل «الحداية» قدمه، مد يده وقبض على ثيابه وأنهضه، استند «زيتون» إلى الجدار ليحمي نفسه من السقوط، اقترب منه أكثر وخفض صوته قليلا:

ـ أين الجهاز يا حشرة؟

قال «زيتون»: في الحفظ والصون.. مازال في الحقيبة وهي مخبأة في مكان أمين.. لا يعلم بوجودها أحد.

تجول الضابط قليلا في الغرفة وهو مستغرق في التفكير، ظل «مطوة» يروح ويغدو أمام الغرفة، استدار «الحداية» نحوه، كانت عيناه تبرقان بشدة، قال:

ـ هذه القنبلة يجب أن تنفجر في مكان محدد، لن يفيد أن نفجرها في أي مكان، ضاعت الفرصة وأصبحت الملايين تملأ الميدان، مكان واحد فقط سيكون مؤثرا.. الخيمة التي يجتمع فيها زعماء هذه الحركة، رجالنا المندسون في الميدان أخبرونا بموقعها، أنها موجودة تماما بجوار الخيمة التي تذهب إليها كل يوم.. الخيمة التي تجلس فيها مع بقية المشبوهين، هل تفهم؟

هز «زيتون» رأسه: أجل.. الخيمة التي أتعلم فيها القراءة والكتابة.

قال الضابط في سخرية: إنهم يعلمونك لتصبح متآمرا مثلهم.. اسمع..يوم أو اثنان سينصرف الجميع، سيخلو الميدان تماما، وسأعثر عليك ولو كنت تحت سابع أرض، بعد اليوم لن تفلت من «مطوة»، ستظل دائما تحت عينيه.. لو تراجعت فستجد سكينه في ظهرك، مفهوم؟

هز «زيتون» رأسه، ماذا كان يمكن أن يفعل؟ أشار «الحداية» إلى «مطوة» الموجود أمام الباب وهو يقول:

ـ لا تدع هذه «الحشرة» تغيب عن بصرك، أي حركة غزه بالسكين وخلصنا منه.

نهض «زيتون»، سار منكس الرأس، يشعر بالألم في كل جسده، ولكنه كان يريد الابتعاد بأي ثمن، لم يلتفت للخلف على الرغم من شعوره «بمطوة» وهو يتبعه. خرجا من جوف النفق، عادا للميدان برائحته المميزة؛ رائحة زحام الناس مختلطة برائحة الغاز التي لم تغادره قط. كان «زيتون» خائفا، شاعرا بغصة في حلقه، يرى كل ما يحيط به غائما بسبب الدموع التي تملأ عينيه، كان «الحداية» على حق.. لن تدوم خيمة الميدان طويلا، سيذهبون جميعا، مثل كل الذين تخلوا عنه، سيتركونه تحت رحمة «مطوة» وهذا الوحش ضابط الأمن، لن يتعلم بما يكفي ليكون إنسانا، سيظل هكذا مجرد حشرة.

اتجه للمسجد المستشفى، كان يعرف أن «مطوة» يرصد حركته، هبط تحت المنضدة، أزاح البطاطين التي كانت تغطي الحقيبة،

حملها على ظهره واتجه إلى قلب الميدان، حرص على أن تكون واضحة حتى يراها «مطوة» وينقل خبرها للضابط المترصد. توجه إلى الخيمة، السبورة مركونة على جنب، وبعض الشباب ينام بجوارها على الأرض. وضع الحقيبة في أحد الأركان، ستكون الوسادة التي ينام عليها الليلة، لن يتبعه «مطوة» إلى داخل الخيمة بالتأكيد، يستطيع أن يغمض عينيه حتى يأتي الصباح، ربما يرتاح جسده قليلا من آثار الضرب والركلات، تأمل وجوه الشباب المستغرقين في النوم، لا يدرون ماذا ينوي أن يفعل بهم في الصباح، هل يمكن أن يغفر له أحد منهم؟ سوف يتركونه وعليه أن يحافظ على البقية الباقية من حياته.

استيقظ في الصباح على صوت ضجة هائلة، كان اليوم هو الجمعة، وبدا أن مصر كلها قد استيقظت وغادر الناس مدنهم وقراهم وتجمعوا في الميدان، أخذوا يواصلون الاحتجاج والهتاف ضد الرئيس العنيد الذي يرفض الرحيل. تجمع الأولاد الذين يتلقون الدروس، كانت إقامتهم خلال الأيام القليلة الماضية وسط شباب الثورة قد غيرتهم تماما، غيرت هيئتهم وسلوكهم، أصبحوا أكثر نظافة، لم يعودوا يتعاركون مع بعضهم بعضا، ولكن «رضوى» قالت لهم:

ـ لن يكون هناك درس اليوم، الميدان وصل إلى الذروة، وربما نتحرك إلى مكان آخر.

انصرفت دون أن تحدد إلى أين سيذهبون، هل علموا بما ينوي أن يفعل؟ هل قرروا الابتعاد عنه قليلا؟ حاول أن يختفي قدر الإمكان عن عيني «مطوة»، انصرف بقية الأولاد، وظل الميدان يموج بحركة غير عادية، هل يستطيع «مطوة» أن يرصد حركته وسط كل هذه الجموع؟ لم يخرج «زيتون» عن المكان الذي توجد فيه الخيام، لم يبتعد عن الحقيبة، كان يرتجف وهو لا يدري ماذا يفعل، تمنى لو أنهم لم يجتمعوا، لو لم يحضروا هذا اليوم وظلوا بعيدين عن هذه الخيمة.

ولكن في منتصف اليوم ظهروا جميعا، تتقدمهم «رضوى»، اتجهوا نحو الخيمة الأخرى كأن بينهم اتفاقا مسبقا، كان يعرف وجوههم جميعا، الذين كانوا يعطونه دروسا، أو يخطبون فوق المنصات، أو يداومون على كتابة البيانات، سيكون «الحداية» في قمة سعادته عندما تنفجر القنبلة وتأخذهم جميعا. دخل إلى خيمته، وضع أذنيه على جدار القماش الفاصل بينهم، كانوا يتناقشون، على الرغم من ضجيج الزحام، جاء صوت «رضوى» واضحا:

ـ الرئيس العجوز مازال عنيدا، يرفض التخلي عن السلطة، ماذا نفعل؟ هل نبقى في الميدان للأبد؟

بأصابع مرتعدة فتح «زيتون» الحقيبة وأخرج الجهاز، تأمل الزر الأحمر المستدير، تلفت حوله في رعب، لا يوجد من يراه، سمع صوت شاب آخر يقول:

ـ كلا.. مكاننا لم يعد هنا، يجب أن نقوم بحركة إيجابية، الخطوة القادمة أن نذهب إلى حيث يقيم، إلى قصر الرئاسة.

صمتوا فجأة، هل يضغط الزر الآن وليكن ما يكون؟ سمع صوت واحد من الشباب يهتف خائفا:

ـ ماذا؟ هذه مخاطرة كبرى، الحرس الجمهوري هناك قوي ومستعد، سيقومون بقتلنا جميعا.

خيم الصمت مرة أخرى، كأنهم يتدارسون هذا القرار الأخير، ثم جاء صوت «رضوى»:

ـ لقد واجهنا الشرطة، والجمال والأحصنة، واجهنا «البلطجية»، علينا أن نكمل الطريق، سيموت بعض منا ولكن سيبقى آخرون، يجب أن نفعل ذلك من أجل الناس الذين يملئون الميدان.

حاول «زيتون» أن يتخيل وجوههم وهم يفكرون في تلك الخطوة، تخيل ملامح «رضـوى» وهي تقول هذه الكلمات، ظل وجهها أمامه دون أن يستطيع الهرب منه، توالى في لمحات خاطفة، وهي تبتسم، تعطيه طعاما بعد أن ظل جائعا لمدة يومين، تقوده للمستشفى وتمنحه الأمان، تحضر له ملابس أخيها الصغير، كانت هي أول من استمع إليه، وأول من علمته سر الحروف، علمته كلمة «ارحل»، وهاهي على استعداد لأن تضحي بنفسها من أجل هذه الكلمة، ارتعدت أصابعه، تكفيه ضغطة واحدة، بعدها يمكن أن يلقي بالجهاز ويهرع مبتعدا، يذوب وسط الزحام، ولكن العرق

البارد كان يغمر وجهه، لو فعلها فسينتهي حلمه القصير، أن يتعلم ويعمل ويأكل من عرق جبينه، ويجد مأوى بعيدا عن الشوارع، كل ما وعدته به «رضوى» سينتهي، ولن تعود هناك ثورة ولا ميدان، سمع صوتا يهتف:

ـ اضغط الزر يا جبان.

يقف «مطوة» عند باب الخيمة والسكين في يده، تطل من عينيه تلك النظرة التي تخيفه، تراجع إلى الوراء، تقدم «مطوة» داخل الخيمة وهو يقول:

ـ دعه يا جبان.. سأضغط أنا على الزر، سأثبت لك أنني أرجل منك.

مد يده يحاول أن ينتزع منه الجهاز، ولكن «زيتون» ضمه إلى صدره وهو يتراجع، لوح «مطوة» بالسكين وهوى بها على وجهه، شق جبهته، أحس بألم شديد، بلون أحمر يحجب الرؤيا عن عينيه. انتزع «مطوة» الجهاز منه وضغط الزر الأحمر، وفي الحال أصدر الجهاز صوت «تكات» متتابعة، ظهر على سطحه مربع مضيء بلون أخضر، بداخله أرقام متتابعة لا تتوقف، تأملها «مطوة» وهو لا يدري ماذا سيحدث بالضبط، ولكن الكارثة كانت على وشك أن تحدث. مسح «زيتون» الدم الذي يغطي عينيه، رأى «مطوة» وهو ينظر إلى الجهاز ببلاهة، شعر فجأة أنه لم يعد خائفا، لا منه ولا من السكين التي يحملها. لحظة الشجاعة المجنونة، نهض بسرعة، نزع الجهاز من يده وهوى به على رأسه، ترنح «مطوة» وتراجع للوراء، سمع صوت «رضوى» وهي تهتف من الخيمة الأخرى:

ـ ماذا يحدث في الخيمة المجاورة؟

لا وقت للإجابة، أو التمهل، لا أحد يعرف كم دقيقة تفصل بينه وبين الموت. أخذ «زيتون» يعدو خارجا من الخيمة، وجد نفسه وسط زحام شديد، أناس يصرخون في جنون، وعلى الشاشة العملاقة رجل أصلع يقول شيئا ما، اصطدم بأكثر من واحد، سقط على الأرض، عاود النهوض، لم يلتفت إليه أحد، ولكن المرور كان صعبا، دفعوه يمينا ويسارا، كم دقيقة باقية على الانفجار؟ متى ستتوقف هذه الأرقام المضيئة؟ كم روحا ستضيع وسط هذا الزحام؟ يجب أن يواصل السير، لا وقت لالتقاط الأنفاس، للوقوف أو الاعتذار، «مطوة» يركض خلفه بالتأكيد، سكينه جاهزة ليغرسها في ظهره، و«الحداية» كامن تحت الأرض، ينتظر سماع صوت الانفجار الكبير، ولكن صوتا بدلا منه، يأتي من أغوار عميقة: تعالَ إليَّ..تعالَ إليَّ.. سأتحمل.

عليه أن يطيع هذا النداء، يخترق الزحام ليصل إليه، مجرد دقائق قليلة تفصل بين الحياة والموت، إما أن يلقي القنبلة ويهرع هاربا، وإما أن يواصل التلاطم والاندفاع. السماء بعيدة، ولا يوجد هواء صالح للتنفس، يوشك أن يسقط تحت الأقدام، تتعالى الصيحات من حوله، والصوت المرتجف يلح عليه بالتقدم.

وصل أخيرا إلى طرف الميدان، موجة باردة من الهواء، طائر أبيض من طيور النهر يحلق أمامه، يطير عاليا عبر المبنى المحترق،

والصوت يلح: تعالَ إليَّ.. سأتحمل.. طوال هذا التاريخ وأنا أتحمل.. لا أتألم إلا عندما يتعكر مائي بالدماء.

«مطوة» يلهث خلفه: توقف يا ولد.. توقف يا جبان.

كان يحس أنه أقوى منه، حتى هذه الأرقام التي لا تكف عن التدافع لن تقدر على إيقافه، وصل إلى الطريق الذي يفصله عن النهر، وبدت المياه في انتظاره، وصاح فيه «مطوة» للمرة الأخيرة:

ـ سيضعك الضابط في سجن لن تخرج منه أبدا، سيقتلك بالتأكيد.

وصل إلى السور الذي يفصله عن النهر، رفع ذراعيه لأعلى ما يمكن، ورأى الأرقام للمرة الأخيرة وهي تتوالى، والشاشة الزئبقية وهي تومض. فتح رئتيه وأخذ نفسا عميقا، كتم الهواء في صدره، ثم طوح بالجهاز إلى الماء بأقصى ما يستطيع من قوة، أحس «بمطوة» وهو ينقض عليه، ولمح نصل السكين الأبيض في الهواء، يوشك أن يشق بطنه، ولكن «زيتون» كان يشعر بأنه لا يوجد من هو قادر على قهره، أمسك بيده وأبعد السكين عن بطنه، ضرب ذراعه في الأرض حتى سقطت منه السكين، ثم سقطا معا من على الأرض.

دوى صوت الانفجار عاليا وعنيفا، اهتز النهر وارتجت الضفة، ارتطمت القوارب الراسية بالشاطئ، ارتفع عمود هائل من الماء، غمر الأسفلت، أحس الاثنان بماء ساخن كاللهب يغرقهما معا،

تناثرت حولهما كتل من الطين والحصى والطحالب والسمك الميت، ومن الميدان البعيد دوت صيحات أخرى هادرة، وحاول «زيتون» أن ينهض ولكنه كان خائر القوى؛ كان مبللا وعاجزا عن أن يلتقط أنفاسه، وظلت مياه النهر تفور، وأمواجه تتلاطم. أغمض عينيه متعبا، وحين فتحهما وجد «مطوة» قد استعاد سكينه، يقف أمامه، جسده مبلل وشعره متهدل وأنفاسه ثقيلة، اقترب منه ووجه السكين إلى رقبته، أغمض «زيتون» عينيه، في تلك اللحظة جاء صوت «رضوى» كأنه قادم من عالم آخر:

ـ ماذا يحدث؟ توقف .. ارفع يدك عنه.

التفت «مطوة» نحوها مفزوعا، لم تكن وحدها،كان معها مجموعة من الشباب، انقض اثنان منهما عليه، قيدوا يديه و انتزعوا منه السكين، وصاح «مطوة» معترضا:

ـ اتركوني، لا حق لكم في الإمساك بي.

وصاح «زيتون»مشيرا إليه: إنه يريد قتلي.

قال واحد من الشباب: سنسلمه للشرطة العسكرية، هي التي ستتصرف معه.

قاداه رغما عنه، ومدت «رضوى» يدها إلى «زيتون» تساعده على النهوض، كان وجهها ممتلئا بالتساؤل، قال «زيتون»:

ـ سأقول لك كل شيء.

وضعت يدها على كتفه وهي تقول:

ـ ليس الآن.. سنعود للميدان أولا لنحتفل.. لقد رحل الرئيس وانتصرت الثورة.

مونتريال

٢٠١٢/٣/٢٩